اشتباكات على خطوط الحب

رواية

دار ديوان العرب للنشر و التوزيع – مصر - بورسعيد

اسم العمل : اشتباكات على خطوط الحب

اسم المؤلف : محمد غربي العزيزي

الجنسية : المغرب

التصنيف الأدبي : رواية

الطبعة الأولى : ٢٠١٩

الترقيم الدولي : ٢ – ٠١ - ٦٧٩٢ – ٩٧٧ - ٩٧٨

رقم الإيداع : ٢٧٣٠٤ / ٢٠١٩

تدقيق لغوي : هبة ماردين

تصميم الغلاف : محمد غربي العزيزي

المدير العام : محمد وجيه

تليفون : ٠٠٢٠١٢١١١٣٢٨٧٩

الكاتب محمد غربي

رواية

اشتباكات على خطوط الحب

حكاية الحب والحرب والجاسوسية

يناير 2019

تنويه

إن هذه الرواية تتضمن في طيّاتها أحداثاً ومواقفاً وتصرفات خاصة بأبطالها والتي هي نتاج تربية فكرية وأخلاقية تختلف كليّاً في شكلها ومضمونها عمّا تربينا عليه في بلداننا العربية من قيم عربية وإسلامية أصيلة وهذا راجع لكون الرواية وقعت في مجتمع غربي بعيد كليّاً عن الأخلاق الإسلامية التي تحكمها ضوابط شرعية تنظم علاقات الأفراد فيما بينهم وفق منهج أخلاقي سليم يستند في جوهره على حِفظ الحرمات ومكارم الأخلاق.

وعليه فإني أهيب بالقارئ الكريم ألاّ يأخذ من أحداث الرواية إلاّ جانبها الأسمى المتوافق مع معتقداتنا الدينية السّمحة وتقاليدنا الأصيلة وما سوى ذلك فلا يعدو أن يكون محض وصف متخيّل لما عاشه أبطال الرواية دونما إيعاز من الكاتب للأخذ به أو استحلال ما حرّم الله

والله ولي التوفيق...

****

كلمة المؤلف

قد يتساءل البعض عن جدوى الغوص في أعماق التاريخ وبعث أحداث خمدت نيرانها قبل أكثر من نصف قرن من أجل كتابة رواية تتناول الحب في زمن الحرب رغم أنه وفي عصرنا الحالي ليس هناك أكثر من نيران الحروب مشتعلة في كل مكان على هذا الكوكب بما فيه بلادنا العربية؟ يبقى الجواب على هذا السؤال ممكنا إذا ما تناولنا الهدف الحقيقي للرواية والتي أردت من خلالها تسليط الضوء على قضية الولاء لغير الوطن عند بعض الأفراد والمجموعات رغم اختلاف الأسباب من شخص لآخر ومن مجموعة لأخرى. إن اختياري للحرب العالمية الثانية كوعاء زمني للأحداث لم يكن اعتباطيا ولا عشوائيا، ولكن هدفي كان هو الابتعاد قدر الإمكان عن كل الحساسيات السياسية التي يمكن أن تثيرها أحداث الرواية إذا ما كانت أحداثها آنية، خصوصا في الجانب المتعلق بتنفيذ أجندات خاصة لصالح قوى إقليمية ودولية خارجية حتى لو كان ذلك على حساب الوطن وضد مصالحه العليا.

يبقى أن أشير أيضا إلى أن العودة إلى التاريخ واستلهام أحداث ووقائع معيّنة منه وإسقاطها على الواقع لا يمكن أبدا اعتباره نوعا من التوثيق أو التأريخ حتى لو كان يقترب منه ويحاكيه لأن الرواية التاريخية تبقى ككل فن أدبي يمتزج فيه الواقع بالخيال وقد يغلب أحدهما على الأخر فتنتفي الموضوعية، فالرواية التاريخية هي كما قال أحد النقاد تاريخ متخيّل داخل التاريخ الموضوعي لا يتقيد كاتبها بنقل الأحداث كما هي ولا يلتزم بتحري الدقة والمصداقية فيما يكتبه، وقد يأخذه حماسه إلى أبعد من ذلك فينغمس بعقله وقلبه وكل جوارحه في حقبة تاريخية معينة يحاكي أحداثها ويدوّنها كأنه يراها أو كأنه واحدا ممن عايشوها رغم أن ما يرويه وما يكتبه ما هو إلاّ محض خيال وهذا ما حصل تماما في هذا العمل الذي بين يديك عزيزي القارئ. لذلك وجب علينا التنويه أن أبطال هذه الرواية "هيرمان" و"أورسولا" وكل الشخوص والأماكن

والتواريخ والأحداث المرتبطة بهما هي من وحي خيال الكاتب فقط ولا علاقة لها بالواقع باستثناء أسماء الشخصيات السياسة الكبرى مثل هتلر وستالين باعتبارهما جزءٌ لا يتجزأ ولا يمكن تجاهله من الحدث الأكبر الذي ارتبط باسميهما (الحرب العالمية الثانية) ولكونهما الشخصيتين الأكثر تأثيرا على مجرى الأحداث بل والموجهين الرئيسيين لما وقع خلال سنوات الحرب التي اخترناها لتكون هي الفضاء الزماني والمكاني لهذه الرواية.

****

كلّ حب لا يثور على التقاليد والأعراف، لا يتفوق على الوطنية ولا يهزم الأيديولوجيا هو حب ناقص وإلى زوال. الحب الحقيقي هو الذي بإمكانه أن يغير قناعات الفرد حتى إذا دخل معركة يمكنه أن يخسرها متعمدا من أجل من يحب وبضمير مرتاح.

طريق الجنة الحارق

لم تفتر صفارات الإنذار المدوية طيلة هذا اليوم البارد من أيام ديسمبر من سنة 1943 عن تمزيق الصمت الكئيب الذي يكتم أنفاس المدينة. كانت سماء دريسدن* حالكة والغيوم تحجب النجوم، الثلوج تكسو الطرقات أمَّا الشوارع فكانت خالية تماما من الحياة والمارة لا يكسر جمودها سوى هدير الطائرات ودوريات الشرطة العسكرية التي كانت تُمشِّط الأزقة والدروب، وتراقب الوضع عن كثب. لا يغادر أغلب سكان المدينة مخابئهم السرية في الأقبية والملاجئ تحت الأرض إلا ليعودوا إليها من جديد، فالقصف الجوي المكثف الذي تشنه قوات الجيش الأحمر* وقوات التحالف لم يعد يتحفظ عن قصف المدنيين ردا على المجازر التي ارتكبتها لوفتفافة* في ستالينغراد* وكل الجبهة الشرقية. وحدها أورسولا كسرت حاجز الخوف وراحت تسلك طريق الموت من برلين إلى هنا متحدية كل المخاطر لتنعم بلحظات دفء في أحضان حبيبها هيرمان. تُرى أي جنون هذا الذي يقودها إلى مغامرة غير مأمونة العواقب مثل هذه؟

لم يسبق لأورسولا أن أقامت علاقة غرامية مع رجل منذ زواجها من الكولونيل كولن فالتر كولن. لم يكن ذلك وفاءً منها لرجل تزوجته مرغمة من دون حب ولا إخلاصا له، ولكن لأن لا أحد من كل الرجال الذين عرفتهم استطاع أن يلفت مجرد انتباهها فكيف بالأحرى أن يخطف قلبها؟ وكيف يتجرأ أحدهم على محاولة الاقتراب منها وهي زوجة الثعلب رجل المخابرات القوي وأحد الأذرع المقربة من الفوهرر* والساهرة على أمنه؟

---

*دريسدن: بالألمانية (Dresden) مدينة تاريخية عريقة تقع شرق ألمانيا وهي عاصمة إقليم ساكسونيا، وتعتبر أكثر المدن الألمانية تعرضا للقصف والتدمير خلال الحرب العالمية الثانية.

* الجيش الأحمر: هى اختصار لجيش العمال والفلاحين الأحمر وهى تسمية أطلقها البلاشفة في روسيا والاتحاد السوفياتي على جيشهم بعد ثورة أكتوبر، وبعد الحرب العالمية II أصبح اسمه الجيش السوفياتي.

* لوفتفافة (بالألمانية Luftwaffe): ويقصد بها القوات الجوية الألمانية مابين 1935-1945، وهي واحدة من أقوى قوات القرن العشرين وكانت طائراتها الأكثر تفوقا تقنيا وعسكريا.

* ستالينغرد : هي مدينة روسية تقع في جنوب شرق الجزء الأوروبي من روسيا، وقد تم تغيير اسمها إلى فولغوغراد سنة 1961 باعتبارها تقع على نهر الفولغا، وهي من أشهر المدن الروسية التي قاتلت وصمدت خلال الحرب العالمية الثانية وقد تم منحها لقب المدينة البطلة.

* الفوهرر (بالألمانية: Führer): هي كلمة تعني "القائد" وقد ارتبطت في تاريخ السياسة الألمانية بالزعيم النازي أودولف هتلر الذي ظل هو الوحيد الذي حمل هذا اللقب.

كان هيرمان وولف ضابطا بجهاز الشرطة السرية الألمانية في الخامسة والثلاثين من العمر، تمكّن بفضل جرأته وشجاعته من انتزاع موقع مرموق داخل الغيستابو* الذي يشغل فيه زوج أورسولا منصبا قياديا. لا زالت تتذكر كيف تحدث عنه بإعجاب وهو يقدّمه لها أوّل مرة في إحدى الأمسيات قبل عامين، حيث وقعت في شراك حبه ومن أول نظرة. لم تكن وسامته المفرطة ولا بنيته الجسمانية القوية وحدهما من جذباها إليه فزيادة على ذلك كان هيرمان يتمتع بجرأة وجسارة جعلته يتفوَّق بهما على كل الرجال الذين قابلتهم وهي لم تنس بعد كيف جعل قلبها يقفز إلى خارج صدرها من شدة الرّعب حين غازلها على مرآى ومسمع من كلِّ الحاضرين في الحفل بمن فيهم زوجها وليته اكتفى بذلك بل زاد بأن عصر يدها بقبضته وهي تصافحه ثم جذبها إليه ليهمس في أذنها قائلا أن جمالها الصارخ أنوثتها المتفجرة يُجبِرانه على اشتهائها وطلب رفقتها. لا شك أن تصرفه ذاك كان جريئا حدّ الوقاحة وفيه جنون وتهور كان من الممكن حتما أن يفضي به إلى الموت، لكن جنونه ذاك هو سر جاذبيته وجرأته الزائدة هي سر إعجابها به. هكذا تتذكر أورسولا الحسناء ذلك اليوم وهي تبتسم وتزيد من سرعة سيّارتها لتصل مبكِّرا وتخطف من الحياة لحظات حميمية تُخفِّف بها من وطأة الحرب والموت التي باتت تؤثث حياة الألمان منذ سنوات.

كانت ألمانيا تعيش على صفيح ساخن منذ سنوات، فالتعبئة العامة لم تكن تفتر أو تتوقف، ولا يمكن أن تجد بيتا خاليا من الصليب المعقوف وصور القائد. الكل كان يمجد هتلر في العلن والكل في السر كان يلعنه، بسبب الحروب التي أشعلها مع أصدقائه وأعدائه في الشرق والغرب وفي وقت واحد. لم يكن مسموحا لأي شاب قادر على حمل السلاح أن يبقى في بيته ولا يتوجه لجبهات القتال. كانت الألوية النازية تقوم بدوريات تفتيش مفاجئة للبيوت والمساكن ومن يتم ضبطه متخفيا يتم سحله

---

* الغيستابو: وهو اختصار ألماني لشرطة الدولة السرية، وهو جهاز أمني استخباراتي.

في الشوارع وشنقه بأسلاك الغسيل وتعليق جثته على أعمدة النور في الساحات العامة. دورة الحياة كلّها أصبحت مكرَّسة لدعم المجهود الحربي، الحليب والشاي والصابون والقمح كل ذلك كان يوجَّه للجنود على الجبهات، حتى أكوام التبن والقش التي كانت تجمعها النساء في القرى والبوادي كان يتم إرسالها لساحات القتال ليتدفأ بها الجنود أثناء نومهم في العراء. عمّال المصانع المدنيين أصبحوا حطبا تهرسهم رحى الحرب ولم يعد هناك ما يمكن العيش من أجله سوى صناعة الموت.

التقت أورسولا بزوجها الكولونيل كولن فالتر كولن خلال عملها كمتطوعة طبية في إحدى مستشفيات العسكرية بالعاصمة برلين. كانت تُخاطر بحياتها من أجل إسعاف الجنود الألمان الذين أصيبوا بعدوى السُّل وكان الكولونيل يتردد على المستشفى لمتابعة تطور المرض الذي كان ينتشر بسرعة مهولة في أوساط الجيش، لم يكد يرها حتى افتُتِن بجمالها الباهر وشجاعتها وحماسها الكبير. حاول أن يتقرب منها لكنها لم تمنحه الاهتمام الكافي الذي يستوجبه منصِبُه وكان حديثها معه جافًّا ومقتضبا جدا ولا يتجاوز عتبة الإجابة بأقلِّ قدر من الكلمات على أسئلته المُختَلَقَة والمتكررة. في واقع الأمر فإن أورسولا لم تكن مرتاحة لإصرار الكولونيل على توجيه استفساراته إليها هي بالذات بالرغم من وجود أطباء وممرضين مختصين وأكثر دراية منها، وفضلا عن هذا كلّه فهي لم تكن مرتاحة لنظراته التي بدت لها عدوانية وغير بريئة لذلك قرّرت أن تتجنبه.

لم يكن برود أورسولا ليخفى على رجل مُجرّب وزير نساء مثل الكولونيل كولن، لذلك استخدم سلطاته وأمر بفصلها من عملها في المستشفى ليُلحِقها بمكتبه كمجنّدة مساعدة. أبدت أول الأمر بعض المقاومة ورفضت القرار لكنَّه لوَّح لها بتهمة عصيان أوامر عسكرية وقت الحرب والتي كانت كفيلة بالقضاء على مستقبلها، ثم ما لبث أن اختصر الوقت وأجبرها على الزواج به رغم الفارق الكبير بينهما في السن فقد كان يكبُرها بثلاثين عاما

ولم تكن هي قد جاوزت العشرين، ورغم أنها كانت تنتمي لعائلة ميسورة وذائعة الصيت إلاّ أن سلطات ضابط الغيستابو كانت أقوى من أي نفوذ لذلك لم يكن بإمكانها أن تتمسك بالرفض مخافة أن يخسر والدها كل ممتلكاته ويجد نفسه واقفا أمام المحكمة العسكرية بتهمة تمويل أنشطة معادية للحزب النازي، فقبلت بعرضه مرغمة.

وصلت أورسولا أخيرا إلى وجهتها في دريسدن وتوجهت رأسا نحو أحد الفنادق الذي يقع على أطراف المدينة في موقع طبيعي ساحر غير بعيد على شاطئ نهر "الإلبة" أعطاها هيرمان عنوانه مسبقًا لأنه يعرفه جيدا ولأنه أكثر هدوءً من غيره بل وبفعل ظروف الحرب يكاد يكون مهجورا إلا من مديرته وبعض الخدم. ركنت سيارتها وقصدت موظف الاستقبال حيث وجدت غرفة محجوزة من أجلها في الطابق الأخير، أخذت مفاتِحها ورافقها إليها بنفسه ليدُلَّها ويحمل عنها حقيبتها.

بمجرد دخولها أخذت تتفقد المكان، فراش مريح مع أغطية نظيفة، نافذة كبيرة تطل على مروج طبيعية شاسعة تحجبها ستائر أنيقة وغامقة اللون تمنع الضوء من تكسير هدوء المكان، مذياع على الرَّف المعلّق وطاولة مع كرسي وخزانة، أمَّا الحمام فكان صغيرا نسبيا لكنه يتوفر على مغطس ومناشف بيضاء نظيفة. سمعت صوت مذياع وخرير مياه قادمين من مكان قريب فسألت الموظف إن كان هنالك نزيل يسكن بنفس الطابق أم أن الأمر لا يعدو أن يكون متعلقا بعمليات التنظيف الروتينية؟ لكن قلقا كبيرا انتابها عندما أخبرها بأن هناك صحفي نمساوي يقيم بالغرفة المجاورة لغرفتها منذ أيام، وأنه هنا ليقوم بتغطية أنباء الحرب. استأذن موظف الاستقبال من أورسولا وسألها إن كانت تحتاج شيئا آخر معربا في ذات الوقت عن أمله أن تكون الغرفة قد نالت استحسانها. شكرته بابتسامة مقتضبة وفكّرت أن تدسّ في جيب سترته بعض الماركات كبقشيش لكنها تراجعت لأنها تعرف مسبقًا أنها لن تفيده في شيء. ففي زمن الحرب فقدت

الأوراق النقدية قيمتها ولم تعد ملايين الماركات تكفِ الألمان لشراء كيلو واحد من اللحم، لذلك اكتفت بعبارات الشكر وتركه ينصرف، أمَّا هي فقد بقيت واقفة تُطِل على ذلك المنظر الطبيعي المترامي من وراء زجاج نافذتها والقلق يُسيطر عليها. لم تشعر برغبة في النوم ولا بالاسترخاء على السرير بل أخرجت علبة السجائر من حقيبتها اليدوية، أشعلت واحدة وأخذت منها نفسا عميقا. كانت متوترة جدا بعد علمها بوجود صحفي بالقرب منها فالأمر يثير حساسيتها. فجأة سمعت طرقا خفيفا على الباب، لم تأتِ بأية حركة ولم تنبس بكلمة حتى تناهى إلى سمعها صوت خافت يقول "هذا أنا حبيبتي افتحي!" لقد كان ذلك هيرمان، شكرت الله لأنه لم يتأخر. اندفعت دون شعور وفتحت له الباب فاختطفها بين أحضانه وهمّ بتقبيلها، لكنها قامت بجذبه إلى الداخل بخفة ضاربة الباب بعقب حذائها لينغلق خلفهما بإحكام. كان لقاؤهما مفعما بالحرارة والشوق وكان هيرمان في قمة سعادته وهو يراها تقف أمامه أخيرا وبعد طول انتظار بل ومنزوية بين أحضانه بعدما قطعت طريق الموت بسلام. شرع في تقبيلها بنهم فيما كانت هي تطلق ضحكات مكتومة، قبل أن تنتبه فجأة من دهشة اللقاء وتحاول التخلص من قبضته. كان يحتجزها بين ذراعيه كأنَّها رهينة لديه ويمطرها بالقبل وعبارات الغزل. أثارها شوقه الجارف إليها لكنها قاومت هياجه وأفلتت نفسها منه بالقوة بل وأوقفت جموحه بإشارة من راحة يدها مطالبة إياه بالتوقف والإنصات إليها قليلا فهناك أمر يقلقها. تغيّرت نبرتها وأصبحت أكثر حزما وتغيرت ملامحها لتبدو جادة أكثر بل وأقرب إلى ملامح الغضب، استغرب من تغير مزاجها المفاجئ وقبل أن يستفسرها بادرته بالسؤال "ألم تقل لي أننا سنكون لوحدنا بالطابق الأخير من الفندق وأنك ستشرف بنفسك على تأمين لقائنا لكي لا يصل الخبر إلى برلين؟" تبسم ضاحكا من سؤالها وحاول أن يسترسل في ما كان يفعله متجاهلا مخاوفها ومُمعِنًا في استفزازها حتى أثار حفيظتها فدفعته بقوة وصرخت في وجهه "أمجنون أنت؟ ثمة صحفي مجهول يشاركنا الطابق ولا نعرف من يكون ومن يدري ربما

هو أحد عيون الفوهرر المبثوثة في كل مكان وإن لم يكن كذلك فربما يكون جاسوسا يعمل لحساب السوفييت. هل تدرك حجم الورطة التي وضعتنا فيها بتهاونك؟" وقبل أن تكمل حديثها قاطعها بنظرات تملؤها الثقة قائلا "تقصدين هير هانز ماكين المحرر بجريدة راديكال النمساوية والذي يقيم في الغرفة المجاورة؟" استقامت وعدَّلت من وقفتها واضعة يدها على خصرها وأجابته بنبرة غضب ممزوج بالاستنكار "نعم يا حضرة الملازم، بإمكاني أن أخمّن أنَّك على علم بالأمر لا داعي لأن تستعرض معي خبث ثعالب المخابرات لأنني سئمته". حاول تهدئتها وتطرية الجو واستعادة الحميمية التي طبعت أول اللقاء فأجابها "حسنا حبيبتي ليس عليك أن تقلقي، فقط اهدئي قليلا واطمئني فلا يوجد نزلاء غيري أنا وأنت بالفندق كلِّه. لقد كان عليَّ أن أستخدم هوية أخرى غير هويتي الحقيقية لأحجز غرفة هنا تعلمين أنّ دريسدن تقع على التماس مع خطوط النار في الجبهة الشرقية وهي لن تخلو من رجال الألوية النازية الذين يرصدون كل صغيرة وكبيرة وينقلونها إلى برلين". نزل جوابه بردا وسلاما على قلبها وخفّت ملامحها العابسة وقالت "تقصد أنك...." قاطعها (مبتسما) "نعم بالضبط، ومن الليلة لن يكون لإسم أورسولا أيضا أي أثر بالسجلات وقد حلّ محله اسم فراون هيلدا ماتياس زميلتي المصورة الصحفية والتي تعمل معي بنفس الجريدة، بهذه الطريقة سنتمكن من البقاء معا طيلة أسبوع بكامله دون أن نثير انتباه أحد". في هذه الأثناء ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها واستعادت فرحتها بلقاء حبيبها وبحركة واحدة فتحت أزرار سترتها وأسقطت تنورتها أرضا وألقت بنفسها بين أحضانه قائلة "الآن فقط يُمكنني أن أقول أني اشتاق إليك وأن لديك عمل كثير لتقوم به".

متلازمة الحب والموت

دريسدن تلك المدينة الساحرة المتَّكِئة في خيلاء على جنبات نهر الإلبة والضاربة بجذورها في أعماق التاريخ ليس غريبا أبدا أن يَؤُمَّها العشاق ومتذوقي الجمال فهي بلا شك تكاد تكون متحفا معماريا مفتوحا في الهواء الطلق للزوار وعين الوافد الجديد على هذه المدينة القابعة على حدود تشيكوسلوفاكيا لا يمكن أن تقاوم الانبهار بفن المعمار الباروكي* التَّليد وفخامته التي تُفصح عنها بجلاء تلك الصروح الضخمة والقلاع المرتفعة البنيان مثل كنيسة "الملوك الثلاثة" و"قلعة زوينغر"، ناهيك عن متاحف الفن التشكيلي ومعرض "الأسياد القدامى" والنُّصُب التذكارية والتماثيل المثبتة وسط النافورات والساحات الكبرى والمنحوتة بإبداع راق ينم عن حرفية ومهارة عاليتين. بالرغم من هذا كله فالقدوم إلى هذه المدينة وفي هذا الوقت بالذات حيث الحرب تشهد أقوى فصولها وأكثرها دموية يعتبر مغامرة غير مأمونة العواقب أو لنقل أنه تهور مبالغ فيه، فهناك إصرار غريب من قوات الحلفاء على تدمير المدينة ودكِّ مبانيها فوق رؤوس سكانها، كأنّهم يحملون حقدا دفينا لهذه المدينة التاريخية العظيمة. في ظروف مثل هذه لا أحد سيُفكر أنَّ عشيقين مهما أخذهما الجنون بعيدا سيختاران مكانا يرزح تحت القصف المكثف ليتواعدا فيه، فاحتمالات الموت تحت شظية حارقة أو قنبلة ناسفة كافية جدا لتكبح جماح أي رغبات مهما كانت متأججة للجنس، ولا شك أن منسوب الأدرينالين الناتج عن الخوف لدى الكائن البشري لديه قدرة خارقة لإخماد أي حافز للمتعة، لكن كل ذلك لم يكن كافيا لإثناء أورسولا وحبيبها هيرمان عن القدوم واختلاس أسبوع بأكمله من اللذة المتزاوجة مع الموت في تحد غريب لمنطق الحياة.

---

* المعمار الباروكي: هو فن من فنون العمارة والتصوير ظهر في أوربا فيما يعرف بعصر الباروك وهو الفترة الممتدة من أواخر القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن الثامن عشر. ومعناه الحرفي "شكل غريب، غير متناسق، معوج" ظهر لأول مرة في روما ثم انتشر في كامل أوربا ووصل إلى أمريكا اللاتينية. ويتميز المعمار الباروكي بالضخامة والتفاصيل الكثيرة والدقيقة ويمتلئ بالإثارة والغرابة.

كان اختيار دريسدن للقاء في هذا الوقت وهذه الظروف بالذات في نظر أورسولا مغامرة مجنونة يجب خوضها لتكون على قدر العشق الذي يقدح في قلبها لهيرمان فهي صاحبة الفكرة وهي من أقنعته بها قائلة أنها تغامر بحياتها لمجرد أنها وقعت في حب رجل غير زوجها وإذا كان هو قد اختار طوعا أن ينخرط في هذه العلاقة المحفوفة بالمخاطر ويتقاسم الغرام مع زوجة رئيسه المعروف بعدوانيته المفرطة فلِم لا يتحلّ بشجاعة أكبر ويقبل بخوض التحدي من أجل الوصول بالمتعة إلى حدّها الأقصى حيث لا شك أن الحب تحت القصف سيجعلهما قريبين من الموت لكن المتعة حينها حتما ستكون أكبر.

من جهته كان هيرمان يؤمن أن الحياة على قِصرها تستحق منه بعض المغامرة حتى لو كانت مُكلِّفة ليجعل منها حياة سعيدة أكثر وممتعة بغض النظر عن الامتثال للقوانين والأخلاق والقيم التي تُعقّدها. لقد كان هيرمان متسلّحا على الدوام بمقاربة خاصة جدا للأمور خصوصا تلك المتعلقة بالحياة الشخصية للأفراد في شقِّها الأخلاقي. بالنسبة إليه فإن القيم والأخلاق التي تؤطر حياة الناس داخل المجتمعات - متحررة كانت أو محافظة - ما هي إلاّ وجهة نظر تعود للأشخاص الأوائل الذين وضعوها ولنا كامل الحق في الاتفاق معها إذا كانت تناسبنا أو الاختلاف معها ونقضها إذا كانت تسلبنا سعادتنا وتزيد في بؤسنا.

رغم أن المسافة كانت تبتعد بين أورسولا وهيرمان بأميال من خلال نظرة كل واحد منهما للأمر، إلاّ أنّها كانت تتقاطع عند نقطة واحدة، فهي كانت مدركة في قرارة نفسها أنها مذنبة بحق زوجها لأنها كانت تخونه وكانت مقتنعة أن خيانتها تلك ربما غير مبرّرة حتى وإن لم تكن تحبه، لكنها بالمقابل كانت تشعر أن ذلك يبقى سلاحها الوحيد للانتقام منه، فهو من أجبرها على ذلك حين أجبرها على الزواج منه ضدا على رغبتها، ناهيك عن كل أشكال التعذيب النفسي والجسدي التي مارسهما عليها خلال سنوات زواجهما الطويلة. لقد كان الإحساس بالذنب والرغبة في الانتقام متلازمين في قناعتها تماما كمتلازمة اللّذة والموت التي

تحدث عنها الفيلسوف الفرنسي جورج بطاي* والذي أسَّس لفكرة مفادها أن البراءة من ذنب العلاقات الجنسية غير الشرعية تتطلب المغالاة في اللذة والإفراط في المجون لإدراك النهايات والوصول بها لأبعد نقطة ممكنة. ويبدو أن أورسولا كانت مثالا واقعيا وتجسيدا حقيقيا لهذه الفكرة حيث أنها أرادت فعلا أن تبرأ من ذنب الخيانة عبر الوصول باللذة إلى ذروتها، ولا نهايات للذة المفرِطة بنظرها إلاّ الاقتراب ما أمكن من الموت.

لم يكن هيرمان من جهته ينظر للأمر بهذا العمق حتى وإن كان لا ينكر أن أعظم اللذات على وجه الأرض هي تلك التي تكون مغلّفة بالخطر، فهو مقتنع أن المحظور له غوايته التي تجذبنا جذبا لنقع فيه مثل حورية جميلة تغريك وسط المحيط بجمالها لتستدرجك ثم تجذبك إلى العمق وتقتلك. يتذكر هيرمان أنه سمع ذات يوم كلاما ذا مغزى وأكثر إقناعا من أحد الجنود المسلمين القادمين من شمال إفريقيا والذي كان يقاتل مع الجيش الفرنسي حيث كان يتحدث إلى زملائه عن الحياة والموت وقرأ عليهم آيات* من القرآن الكريم كتاب المسلمين المقدَّس يتلَّخص معناها في أن الرب القدير خلق الموت والحياة ليختبر أعمال البشر حتى يتميز منهم من يستحق الحياة الأبدية. ظل هيرمان يرى أن هاته الحكمة السماوية تحمل في طيَّاتها فلسفة عميقة تستلزم التفكير فيها مليا لفك شفرتها، فكيف يخلق الرب الموت قبل الحياة؟ وكيف تكون الحياة كلها مجرد امتحان إلاّ إذا كانت السعادة الأبدية هي النتيجة الحتمية لهذا الامتحان العسير. من هذا المنطلق يرى هيرمان أنه ربما لا يضمن النجاح في هذا الاختبار لأن رصيده الإيماني لم يكن بالقدر المطلوب ليعبر به إلى الحياة الأبدية ويقول إذا كانت حياتنا الصغرى هي بؤس متواصل أوَّله موت وآخره موت فالأولى أن نعيش هذا البؤس

---

*جورج باطاي (1897-1962) : فيلسوف فرنسي عُرف بتأثره بفلسفة نيتشه والنزعة السريالية كما عُرف أيضا بكتاباته الإباحية والمُفرطة في المجون، حاربه جان بول سارتر واعتبره مجنونا وعربيدا سيء السمعة. من مؤلفاته: الشبقية والتجربة الباطنية.

*الآيتين الأولى والثانية من سورة الملك: " بسم الله الرحمن الرحيم تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2)"

بمتعة وليس هناك متعة في الحياة على هذه الأرض ألذ من الجنس.
في واقع الأمر فإن هيرمان لم يكن يفهم حقا ما يقوله، فقد تشبَّع بفكرته تلك انطلاقا من عداءه الشخصي للكنيسة التي كانت قد فقدت الكثير من تأثيرها ولأنها كانت تواجه الإباحية المفرطة التي انتشرت في أوربا بعد الثورة الصناعية بعصبية مفرطة لدرجة أنها نزعت عن الحب طابعه الروحي ودفعت ببعض رجال الدين إلى الوعظ بأن الإفراط في الجنس يقتل الإيمان بالرب ومن يفقد إيمانه فلا يجب أن يأمل في حياة أبدية. لذلك كان هيرمان مقتنعا أن كل من يربط حياته بالدين والأفكار اللاهوتية فإنه يرتكب خطأً جسيما بحق نفسه، فرجل الدين مهما كان متسامحا لا يمكنه أن يفهم أن دفقة المني الساخنة أثناء الرعشة الكبرى هي شلال هادر لا ينضب بماء الحياة، وأن الحياة الدنيا ما هي إلاّ البنت الصغرى للحياة الأبدية وجزء لا يتجزأ منها، لذلك قرّر أن يقبل التحدي ويستمتع بلحظات العشق مع أورسولا حتى لو كان ذلك متلازما مع الموت.

ديسمبر شهر الحب والحرب والفودكا

انقضى اليوم الثاني منذ وصول أورسولا لملاقاة حبيبها هيرمان، يومان كاملان لم يغادر فيهما العشيقان غرفتهما بالطابق الأخير من الفندق. كانا يستمتعان بممارسة الجنس والحديث عن الحرب والحب والأدب. لم تكن أورسولا مجرد امرأة حسناء فقط بل كانت تتمتع بثقافة واسعة وعلى اطِّلاع بمجالات كثيرة كعلم النفس والفنون والشعر والفلسفة. كانت شديدة الولع بالشعر الكلاسيكي الحديث لذلك كانت تحفظ روائع القصائد لشعراء كبار مثل فون شيللر وغوته وتقوم بين الفينة والأخرى بإلقائها على مسامع هيرمان بصوتها الأنثوي الرخيم وهو ما يجعل الحديث معها متعة لا تنتهي كيفما كانت الظروف.
كانت أورسولا وباعتبارها زوجة الكولونيل المقرب من هتلر وأحد أركان نظامه تعيش بمعزل عن هموم وآلام البسطاء من الشعب الألماني شأنها شأن زوجات وعائلات القادة الكبار في الحزب النازي، وكانت مقتنعة حد الإيمان بأفكار هتلر التي ستجعل من ألمانيا قوة عسكرية واقتصادية عظمى يهابها العالم. ورغم أن ظروف الحرب كانت تحرمها من الاستمتاع بحياتها الطبيعية وتزرع بعض الكآبة في نفسها إلاّ أنها كانت مؤمنة أنَّ للحرية ثمن يجب أن تدفعه الشعوب إذا أرادت العيش بسلام، وأن ما يحصل لهم الآن يبقى أهون بكثير مما حصل لهم بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ولكي لا يتكرر ذلك الخطأ يجب عليهم أن يتسلّحوا بالصبر ويقاتلوا بضراوة ليهزموا أعداءهم ويحافظوا على استقلالهم تماما مثلما عليهم أن يعملوا بجد ودون كلل أو تذمر ليضمنوا لأنفسهم تفوقا اقتصاديا كبيرا على أعدائهم المتربصين بهم شرقا وغربا.
كانت هذه القناعة تترسخ أكثر فأكثر كلّما حقق هتلر وقواته تقدما في الحرب، فأبواق الدعاية النازية لم تكن تفلت أي انتصار أو تقدم على خطوط النار دون أن تقوم بتسويقه للشعب

الألماني باحترافية عالية بعد تضمينه بخطابات قومية وعبارات عنصرية تدغدغ بها مشاعر الجماهير المؤمنة بالفكر النازي، لكن ما كان يغيب عن أورسولا تحديدا هو أن الحرب ومهما بدت دوافعها نبيلة ومنطقية ومهما اجتهد أصحابها في تبريرها إلا أنها تبقى مرادفة للجحيم حيث أن تكلفتها المادية والمعنوية تكون مرتفعة ولا يدفع ثمنها سوى البسطاء من عامة الشعب ناهيك عن خسائرها البشرية الهائلة والتي لا يمكن تعويضها مهما كانت المكاسب والأرباح.

في ظل أوضاع الحرب القاسية لم يكن بمقدور أورسولا وهيرمان الحصول على الطعام الجيّد الذي تعوَّدا عليه في برلين، لذلك كانا يكتفيان بالبسكويت المقرمش مع بعض الجبن وحبة أو حبتين من البطاطا المسلوقة إذا توفّرت أحيانا. كانت أورسولا حريصة على تزجية أمسياتها الباردة بالنبيذ الساخن الذي يتم تحضيره محليا بالمقابل لم يكن هيرمان يجد غضاضة في الاستمتاع بحصته اليومية من الفودكا الروسية المهربة من تشيكوسلوفاكيا رغم أن ذلك كان يثير استهجانها وسخطها فهي تعتبر استهلاك المشروب الوطني لدولة معادية خصوصا في زمن الحرب نوعا من الخيانة المعنوية للرايخ العظيم* وكانت تُقرّعه على ذلك وأحيانا كثيرة تهزأ منه وتصفه بالفأر الجبان حينما تضبطه يقوم بإفراغ مشروب الفودكا في قنينات النبيذ المحلي كنوع من التمويه تفاديا لإثارة أية شكوك وتحسبا لمداهمات مفاجئة لرجال الشرطة العسكرية.

كانت ذات مساء مسترخية فوق الكرسي تريح ظهرها على مسنده الأيمن بينما ترفع رجلها اليسرى فوق المسند الأيسر ولم تكن ترتدي غير قميص نوم شفاف يرتفع إلى أردافها مبرزا كامل فخديها بينما تسدل قبضته اليمنى على كتفها لتستقر على جانب ذراعها كاشفة عن ثلاثة أرباع نهدها. كانت منتشية وترمقه بنظرات لاذعة وهي تمسك قنينة النبيذ بيد وتداعب

---

* الرايخ الألماني: هو الاسم الرسمي لألمانيا في الفترة (من 1871 إلى 1945) باللغة الألمانية ترجمته الحرفية هي "الامبراطورية الألمانية".

فوهتها باليد الأخرى وتقول له أن الفوهرر حتما سيعصر خصيتيه تأديبا له على ازدرائه للمشروب الوطني وتفضيله لمشروب الأعداء. أمَّا هو فكان مستلقٍ على ظهره فوق السرير مبتسما ويؤكد أنه لا مانع لديه في مضاجع شيوعية حسناء في الساحة الحمراء بموسكو ويراق دمه في برلين ويخلطوه بنبيذ ألمانيا الساخن إذا كان ذلك سيُحلِلِ السلام بين المتحاربين وينهي الحرب. لكن هيرمان ورغم ولعه بالشرب إلاّ أنه لم يكن يسمح لنفسه أبدا بالإفراط فيه حد الثمالة بل كان يكتفي منه بالقدر الذي يحافظ على يقظته وانتباهه عكس أورسولا التي كانت تضيع مع أول زجاجة نبيذ دون أن تدري أن إفراطها في الشرب كان يعني تلقائيا إفراطها في البوح وهو ما يمكن أن ينشأ عنه خيانة أفظع وأخطر على الرايخ من بضع قطرات من الفودكا.

الجيوش تخسر معاركها من غرفة النوم أولا

يقول مثل روسي شهير "لو كانت المرأة جيدة لاتخذ الله واحدة" تعبّر هذه الجملة عن ازدراء واضح ونظرة سلبية تجاه المرأة تواترت منذ عشرات السنين حتى استقرت كحكمة مُسَلَّمٍ بها في ضمير عدد كبير من المتشددين الروس. لكن الحقيقة الساطعة أن أكثر هؤلاء الأشخاص عداءً للمرأة لا يستطيعون إنكار حقيقة مفادها أنهم مدينين بالفضل الكبير لمجموعة مختارة من النساء، إذ لولاهن لكانت العاصمة موسكو قد سقطت في أيدي القوات النازية وتم إغراقها وتحويلها إلى بحيرة صناعية كبرى كما كان يأمل هتلر، ولكانت للحرب العالمية الثانية نتائج مغايرة تماما عمَّا هي عليه الآن. ولو أدرك أدولف هتلر ما كانت تهمس به زوجات الجنرالات وكبار الضباط في آذان أخِلاَّئِهن لكان جعلهن وقودا لمحرقته قبل أن يُسعِّرها لأعدائه. فبالعودة قليلا إلى الوراء وتحديدا في 15 يونيو/حزيران من سنة 1941 في هذا التاريخ بالضبط تلقَّت القيادة السوفيتية برقية من صحفي ألماني يقيم في طوكيو كان متشبعا بالفكر الشيوعي ويدعى ريتشارد سورج* يُعْلِمُهم فيها بعزم الألمان غزو الاتحاد السوفييتي بهجوم مباغت وحدَّد لهم تاريخا تقريبيا للهجمة. لكن ستالين تجاهل رسالته معتبرا إياها مجرد وشاية حمقاء وفي حقيقة الأمر هي لم تكن كذلك، فبعد مرور أسبوع واحد فقط شنَّت الفيرماخت* هجوما عنيفا على الاتحاد السوفيتي عرف بعملية باربروسا* واحتُلَّت أجزاء كبيرة من موسكو وفقد السوفييت توازنهم وتخلّوا عن أماكنهم لتسقط معظم المدينة، وكان لهذه العملية نتائج كارثية أفضت عند نهايتها إلى سقوط مليون قتيل غالبيتهم العظمى من السوفييت وعدد لا نهائي من الجرحى فضلا عن وقوع أكثر من ثلاثة ملايين جندي روسي في الأسر قتل الجوع أغلبهم في معسكرات الاعتقال.

---

* فيرماخت (بالألمانية: Wehrmacht) وتعني "قوة الدفاع" وهي التسمية الرسمية التي كانت تطلق على القوات المسلحة الألمانية ما بين (1935 و1945)، وضمت القوات البرية والقوات البحرية وسلاح الجو.

* ريتشارد سورج: شخصية ألمانية حقيقية بالفعل، كان متشبعا بالفكر الشيوعي وتعاون مع السوفييت ضد بلده ألمانيا.

*عملية باربروسا: هو الاسم الرمزي لعملية غزو الاتحاد السوفيتي خلال الحرب العالمية الثانية،في 22 يونيو 1941.

كادت هذه العملية الرهيبة أن تنتهي بسقوط موسكو كلية في يد القوات النازية إذ لم يتبّق في الخطوط الخلفية بالمدينة سوى تسعون ألف جندي سوفيتي نذروا أنفسهم للموت مستميتين في الدفاع عن عاصمتهم، ولم تكن هنالك قوات احتياطية في الغرب لتدعمهم لأن الأعداد العظمى من الجيش الأحمر ظلت ترابط منذ وقت طويل في سيبيريا حيث كان الروس يتهيّبون هجوما يابانيا من الشرق. في هذا الوقت الحرج من التاريخ عاد سورج ليتدخل بحسم وبراعة من خلال برقية ثانية وصلت إلى القيادة السوفيتية مع نهاية سبتمبر/أيلول يُعْلِمُهم فيها بتخلي اليابان تماما ونهائيا عن فكرة مهاجمة الاتحاد السوفييتي من جهة الشرق ويؤكد لهم فشل السفير الألماني في إقناع قادة طوكيو بخوض مغامرة الحرب ضد روسيا، كما أعلمهم أن اليابانيين باتوا مقتنعين بضرورة سقوط موسكو بالكامل واندحار الجيش الأحمر أمام القوات النازية في الغرب لمباشرة هجومهم على روسيا بشرط مضاعفة أعداد القوات اليابانية لنظيرتها السوفيتية بثلاث مرات وهو طبعا ما كان مستبعدا جدا حدوثه خلال الأمد القصير على الأقل.

على عكس المرة السابقة شكلت هذه المعلومات الدقيقة والخطيرة دافعا قويا لجوزيف ستالين كي يسحب الجيش السيبيري من ناحية الشرق ويدفع به غربا نحو العاصمة. حينها فقط تمكن السوفييت من استعادة توازنهم وسيطروا مجددا على الوضع وتمكنوا من العودة في الميدان والتصدي للهجوم النازي ثم محاصرة الفيرماخت وإلحاق أولى الهزائم به ودحره إلى أوكرانيا. لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد فحسب، فقد كان لسورج أيضا الفضل الكبير في النَّصر الذي حققه الجيش الأحمر في معركة ستالينغراد الحاسمة بعد أن أبرق لستالين برسالة مُشفَّرة يمدُّه فيها بمعلومات مؤكدة عن نية اليابان مهاجمة روسيا من الشرق في حال سقوط المدينة لفتح الطريق أمام قوات المحور من أجل الوصول لآبار النفط، وهو ما دفع بالرئيس السوفييتي إلى تحصين دفاعاته بالمدينة وإمداد قواته بالجنود والعتاد والأقوات من أجل الصمود ومواصلة الدفاع

عنها بل وخوض حرب شوارع شرسة انتهت بطرد النازيين من ستالينغراد واستعادة زمام المبادرة في الحرب واستنزاف الفيرماخت كليا. وطبعا هنا يقفز التساؤل الأكثر إلحاحا وهو "من أين كان ريتشارد سورج يستقي معلوماته؟" الجواب سيأتي من رجل حرب آخر لم يكن سوى "نابوليون بونابارت" عندما قال قبل أكثر من مائة عام عبارته الشهيرة "فتِّش عن المرأة"، وحتى لا نذهب بعيدا فسورج الذي كان صحفيا ألمانيا يعمل في اليابان تمكن من نسج علاقة صداقة متينة مع سفير ألمانيا في طوكيو الكولونيل يوجين أوطت ومع توالي الأيام توطدت هذه العلاقة لتشمل زوجة السفير أيضا حيث أصبح الصحفي يشاركهما كل شيء بدءً بالطعام والشراب والنوم وانتهاءً بالمعلومات، وما كان يتكتم يوجين أوطت عن قوله في مكتبه بالنهار كانت زوجته هيلما أوطت تبوح به مفصلا لعشيقها سورج على السرير بالليل، لتتكرس بذلك فكرة غريبة لكنها واقعية مفادها أن الجيوش تخسر معاركها من غرف النوم أولا.

رحلة قصيرة إلى الجحيم

بعد يومين كاملين لم تبرح خلالهما أورسولا غرفتها قرّرت أخيرا أن تقوم بجولة بين شوارع وأزقة المدينة. تسكن الحركة تماما في دريسدن كلّما حلّ المساء كأنَّ قاطني هذه المدينة يمتثلون لحظر تجوّل عرفي غير معلن عنه. أطلّت برأسها من النافذة فقرصت أنفها كتل هوائية رطبة، كان الجو صقيعي جدا تتخلّله زخَّات رذاذ تؤذن بأمسية ثلجية لكن ذلك لم يُثنِها عن الخروج. ارتدت بنطالا رمادي اللون مع كنزه مصنوعة من القطن لتقيها شفرات البرد الحادة ولبست حذاءها البني الطويل ثم احتمت بمعطفها واعتمرت قبَّعتها الصوفية وخرجت. طلب هيرمان أن يرافقها لكنها رفضت وطمأنته بأنها لن تتأخر. وقفت لبرهة تنظر إلى سيّارتها المركونة في مرآب الفندق وتفكر أين ستكون وجهتها الأولى، ثم قرّرت أن تتمشى قليلا وتكتشف المناطق المجاورة سيرا على الأقدام. كان الفندق يتواجد بأطراف المدينة وتحيط به حقول شاسعة ومروج مُبهِجة من جهة الغرب، وغير بعيد عنه من جهة اليمين تتواجد استراحة صغيرة مهجورة تُطِلّ مباشرة على نهر الإلبة بها مقصف كان قبل الحرب يقدم المشروبات والفطائر للزوار لكنه أوصد أبوابه ولم يعد يأت إليه أحد. كانت رياح الشتاء الباردة تعبث بخصلات شعرها المنسدلة من تحت قبعتها الصوفية وتلوّح بها يمنة ويسرة لكنها كانت تداعب ذاكرتها أيضا وتنعش مخيّلتها حيث استحضرت صورًا قديمة عادت بها إلى مسقط رأسها في هامبورغ المدينة التي عاشت فيها أجمل أيام طفولتها. كانت أورسولا تستحضرشوارعها الواسعة وأزقتها الضيقة المرصوفة بالحجارة وأسقف منازلها المائلة المزينة بالقرميد الأحمر. تذكَّرت أيضا تلك الترانيم الكورالية التي تعّلمتها في كنيسة القديس ميخائيل فقد جرت العادة في مثل هذا الوقت من كل سنة أن تستعد رفقة أختها لأعياد الميلاد. كانتا تقومان بتزيين شجرة الصنوبر الصغيرة وتنتظران صباح العيد كي تجدا

ما ترك لهما سنتا كلوز* من هدايا بجانب الموقد. لازمتها تلك الطقوس الاحتفالية حتى كبرت وأدركت أن لا وجود للقديسين في القطب الشمالي وأن تلك الهدايا إنّما كانت تأتيها من والدها الذي كان يجتهد في إسعادها دائما ولم يتوقف عن ذلك حتى أقعده المرض ورحل عن الدنيا تماما مثلما رحلت السعادة والفرح عن حياتها وأصبحا مجرد ذكرى من الماضي.
هوت شمس ديسمبر إلى مغيبها كأنها تغرق في شفقها تاركة أشعتها البرتقالية تتكسر على وجه الماء، وقفت أورسولا في مكان مرتفع على جانب النهر وراحت تتأمل في صمت منظر المياه وهي تسير في طريقها لا يوقفها شيء. تذكرت وصفا قرأته ذات مرة للشاعر هاينريش فون كلايست كتبه في رسالة بعث بها لشقيقته يقول فيها "أقف على ضفة الشاطئ المرتفع وأنظر إلى الأسفل لأرى وادي الإلبه الخلاَّب الذي جثا على ركبتيه أمامي كلوحة رسمها كلود لوريان" يال التناقض! كأن الماضي والحاضر في هذه المدينة أصبحا كقطبي مغناطيس يتنافران ولا يلتقيان، فهي الآن من تجثو على ركبتيها أمام النهر تتوسله لكي يغسل روحها من الهموم. شعرت فجأة بالرغبة في مغادرة المكان فهي بحاجة لما يريح نفسها من هذا اليأس الذي يحاصرها. عادت مسرعة إلى الفندق وأخذت سيارتها وتوجهت نحو عمق المدينة، أرادت أن تشعر بدفء أزقتها الضيقة ودروبها العميقة وتمشي بين أسوارها التاريخية عساها تتنفس بعضا من عبق الزمن الجميل، لكن صدمتها كانت قوية وهي ترى من زجاج سيارتها حجم الدمار الذي حلّ بها وفتك بأهم معالمها. لقد قصفوا بناياتها العتيقة ودكُّوا جدرانها، حتى مآذن الكنائس وقبة الأوبرا وأسوار القصور القديمة لم تسلم من النيران. شعرت بهُلام أسود ينقَضُّ عليها ويعصر قلبها، كانت تريد أن تتخلص من الثقل الجاثم على صدرها لكنه أحكم قبضته على قلبها وغشى عينيها حتى عجزت عن إكمال جولتها وتوقّفت عن المسير.

---

*سانتا كلوز: هي إحدى التسميات التي كانت تُطلق في دول شمال أوربا على بابا نويل والذي غرف في قصص الأطفال بأنه يعيش في القطب الشمالي مع زوجته السيدة كلوز، وبعض الأقزام الذين يصنعون له هدايا الميلاد، ليوزعها على الأطفال حيث كان يحملها على مزلاجته الطائرة التي تجرها الأيائل.

وضعت رأسها في يأس على مقود عربتها للحظات لكنها سرعان ما نهضت كأن نقطة ضوء أبرقت لها بعدما ساورتها فكرة التوجه نحو كاتدرائية المدينة لتوقد الشموع للعذراء. لم تكن أورسولا متدينة بالقدر الذي يدفعها لتحرص على أداء الصلوات، فالدين في ألمانيا كان جبهة أخرى من جبهات الحرب الإيديولوجية وكان يُسمح به فقط بالقدر الذي يتناسب الفكر النازي لكنها لم تعد تهتم لذلك، هي الآن بحاجة لشحنة روحانية عظيمة كي تساعدها على مقاومة الحزن الذي يتوسد روحها. وصلت إلى الكنيسة، تأملتها للحظات من الخارج ثم هرولت مسرعة إلى الداخل. أشعرها المكان بالدفء والطمأنينة فقد كانت في أبهى حلة بعدما زيّنها القساوسة بالصلبان وأيقونات العذراء والسيد المسيح استعدادا لقداس عيد الميلاد. لم تكن الصلوات قد بدأت بعد لكنها وقفت أمام صورة السيدة العذراء وراحت تصلي وتدعو الله أن ينهي هذه الحرب التي طالت أكثر من اللازم. جثت على ركبتيها وبكت بحرقة حتى سُمع نشيجها ثم أوقدت الشموع على النصب وتركتها تقدح وغادرت. كانت السماء تزداد شحوبا والثلج يتجمع في الأعالي ليبدأ في إلقاء نُدُفِه الناعمة. بدت لها المدينة خالية من كل شيء كأنها مدينة أشباح. سارت بسيارتها لمسافة قصيرة ثم توقفت بسبب عطل أصاب محركها، حاولت أن تعيد تشغيله، أدارت المفتاح عدة مرات لكن دون فائدة، كفّت عن المحاولة عندما نفذت البطارية وتوقف المحرك تماما عن الدوران. تركتها على جانب الطريق وراحت تبحث عن خط هاتف قريب لتكلم هيرمان لكن كابينات الهاتف هي الأخرى لم تسلم من القصف. كان الظلام قد نشر أجنحته الحالكة ومصابيح الإنارة العمومية لم تكن بالقوة لتبدد عن المدينة ظلمتها، كل المحلاّت والحانات أقفلت أبوابها مخافة استهدافها من قبل طائرات التحالف. كانت المدينة العتيقة على بعد خطوات منها، دخلت إليها عبر زقاق جانبي عرجت منه إلى زقاق آخر أخرجها ونزلت الدرج الذي ألقى بها في نفق مظلم عبرته مضطرة إلى شارع صغير على الجانب الآخر من المدينة دون أن تعرف إلى أين تمضي، واستمرت بالمشي

واختراق الأزقة والدروب دون تركيز حتى أضاعت طريق العودة. مرّت قرابة الساعة وهي تسير بين زقاق وآخر دون أن تشعر بالوقت حتى وجدت نفسها أخيرا في مكان موحش وخال من المارة تماما. أدركت أنها دخلت في متاهة لن تخرج منها بسهولة، فالدروب كانت مظلمة والأزقة متشابهة. بدأت ضربات قلبها تتسارع وشعرت برهبة كبيرة تجتاح صدرها زادتها صفّارات الإنذار التي أطلقت العنان لدويّها مؤذنة بقصف وشيك رعبا وهلعا. فكّرت بأن تطرق باب بيت من البيوت وتطلب عونهم لكنها عدلت عن الفكرة وفضّلت الاستمرار في السير. أطفأت المدينة أضواءها كي تحجب الرؤية عن مقاتلات العدو التي تستهدفها من السماء فعمّقت من عزلتها. لاحت لها من بعيد نقطة ضوء خاطفة، خمّنت أن يكون ذلك ضوء عربة على الطريق الرئيسي أو طريقا فرعيا يقود إليه فمشت باتجاهه مسرعة. لم تعد تشعر بالبرد واستحوذ الخوف والقلق على كل أحاسيسها، ودّت لو أنها سمحت لهيرمان بمرافقتها فمن المؤكد أنه كان سيتصرف بشكل مغاير ويُجنّبها ما هي فيه الآن. مشت لمسافة طويلة باتجاه نقطة الضوء دون أن تجد شيئا. كان الظلام يخيّم على المكان ولا أثر لجنس بشر في الخارج ففي مثل هذه اللحظات العصيبة يحتمي الأهالي في أقبية بيوتهم أو في الملاجئ تحت الأرض التي تُهيّؤها السلطات. التفتت أورسولا يمينا ثم شمالا وأخذ اليأس مأخذه منها لكن رجلا غريبا تجسد أمامها فجأة في الظلام كأنه خرج من الحائط. ارتعبت من منظره لكنها تماسكت وخفّ جزعها قليلا عندما رأته منهمكا في إغلاق أبواب محلّه، اقتربت منه فتبيَّن لها أنه كان يُغلق أبواب حانته. نظر إليها بارتياب وسألها من تكون؟ فشكرت الرّب لأنها أخيرا استطاعت أن تجد شخصا تتحدث إليه. أخبرته أنها صحفية غريبة عن المدينة وأنها تاهت وهي تبحث عن كابينة هاتف بعدما تعطلت سيارتها في الشارع الرئيسي. لم يُصدّق الرجل أذنيه وقال لها "هل تعرفين أين أنت الآن؟ لقد توغلتِ كثيرا فالشارع الرئيسي بعيد تماما عن هنا". أثار موقفها تعاطفه وسمح لها باستعمال هاتف الحانة للاتصال بالفندق، لم تكن

تعرف الرّقم لكنه بحث عنه في دليل الهاتف وطلبه لها بنفسه. كانت خطوط الهاتف في دريسدن قد تضررت بشكل كبير جرّاء القصف لكن لحسن حظها فقد رن الجرس واستطاعت أخيرا أن تكلم هيرمان، أخبرته بما حصل معها وأنها الآن تائهة لكن الوقت لم يسعفها وانقطعت المكالمة قبل أن تُخبره بمكانها، حاولت معاودة الاتصال عدة مرات لكن دون جدوى. كان اللّيل قد أحكم قبضته تماما على المدينة وزادت قسوة الشتاء من حِلكة الظلام وكان صاحب الحانة مُجبرا على إغلاق محلّه بسبب قانون طوارئ الحرب الذي فرضته السلطات، عرض عليها أن ترافقه إلى بيته بالجوار وتمكث عنده حتى الصباح وأخبرها أنها لن تكون بمفردها معه فلديه زوجة وأولاد لكنّها رفضت وطلبت منه أن يدلها على أقرب طريق كي تعود إلى المكان الذي تركت فيه سيارتها.

كانت أورسولا ودون أن تشعر قد مشت لمسافة طويلة جعلتها تبتعد كثيرا عن وسط المدينة، دلّها صاحب الحانة على شارع صغير قريب من الحانة وطلب منها الانتظار هناك فعادة ما تمر منه سيارات المؤن والدواء في هذا الوقت ويمكنهم أن يُقلّوها معهم إلى وسط دريسن. شكرته وقصدت الشارع وظلت تنتظر هناك بمفردها. كان الوقت يمر ببطء والمكان موحش وكان رذاذ الثلج والبرد يتناوبان على قشعرة جسدها، لكنها كانت ترتعد من الخوف أكثر مما ترتعد من البرد. لم يظهر أثر لأي عربة أو محرّك وخشيت أن يبدأ القصف وهي لا تزال بالخارج، فكّرت في مواصلة السير لكن قواها كانت خائرة كما أنها خشيت أن تبتعد أكثر وتتعمّق في هذه المناطق المعزولة والتي عادت ما تكون غير آمنة. بعد صبر طويل لاح لها ضوء سيارة يخترق العتمة من بعيد فابتهجت ووقفت وسط الطريق وراحت تلوح بكلتا يديها للسائق، توقفت العربة فترجل منها شخصان بزي نظامي، كانت تلك إحدى دوريات الشرطة العسكرية التي تُمشِّط دريسدن وضواحيها ليل نهار. سألوها من تكون وما سبب وقوفها في هذه المنطقة النائية وفي هذا الوقت المتأخر لكنها لم تفصح لهم عن هويتها الحقيقية خشية أن يصل الخبر بطريقة ما

لزوجها، لذلك فضّلت أن تخبرهم أنها صحفية نمساوية واسمها فراون هيلدا ثم قصّت عليهم ما حدث معها كاملا.
لم تكن أورسولا - وبناء على نصيحة هيرمان- تحمل معها أي وثائق تثبت هويتها الحقيقية لذلك أخبرها رجال الأمن أنهم سيُقِلّونها معهم وسيقومون بتسليمها إلى شرطة مدينة دريسدن كي يتحققوا من هويتها قبل إخلاء سبيلها، لقد وقعت في نفس الورطة التي كانت تفر منها وهذا ما لم تأخذه بالحسبان. شعرت بالدماء تصعد ساخنة إلى رأسها وتكاد تتدفق من أذنيها ولم تعرف كيف ستتخلص من هذا المأزق الذي وضعت فيه نفسها، تشتّتت أفكارها واضطرب روعها ثم أغمي عليها.
في تلك الأثناء وبمجرد انقطاع مكالمتها كان هيرمان قد غادر الفندق وخرج للبحث عنها، مسح كلّ الشوارع الرئيسية والطرقات الجانبية وبحث في كل مكان يمكن يجدها فيه دون جدوى، فكّر بالذهاب إلى الكاتدرائية لكنه تراجع عندما لمح سيّارتها مركونة على جانب الطريق، خمّن أن تكون تائهة في أحد الأزقة أو الدروب المجاورة لذلك ركن سيارته إلى جانب سيارتها وراح يبحث عنها في الجوار. خلف الشارع الرئيسي كانت هناك عدة ممرات جانبية صغيرة تؤدي إلى المدينة العتيقة دخل منها معتمدا على حدسه وممنيا نفسه بالعثور عليها. بدأت الثلوج تغزل بياضها، الحانات والمحلات والمقاهي كلها مُقفلة والحركة منعدمة تماما كأن المدينة قد أُفرغت من قاطنيها. استمر هيرمان في البحث وسط الدروب والأزقة وأوغل بين المسالك المظلمة والممرات الضيقة دون جدوى، سأل شخصين التقى بهما لكنهما رفضا التوقف والحديث إليه. بعد ساعتين من البحث المضني خارت قواه هو أيضا ووجد الاضطراب والقلق طريقهما إلى نفسه، اعتراه خوف من أن يكون قد أصابها مكروه وأُسقِط في يده فلم يجد بُدّا من التوجه إلى مخفر الشرطة ليبلّغ عن اختفائها ويطلب مساعدتهم. كان مدركا أن ذلك سيجر عليهما متاعب جمّة وقد تنكشف علاقتهما، لكنه فضّل تحمل كل العواقب في سبيل العثور عليها والعودة بها إلى الفندق سالمة.

استفاقت أورسولا من إغماءتها فوجدت نفسها ممدة على سرير وبجانبها ممرضة تنتمي لسلك الشرطة المدنية. أخبرتها أن دورية للشرطة العسكرية سلّمتها لهم قبل قليل للتثبت من هويتها وأنها تتواجد الآن بالمقر الرئيسي لشرطة دريسدن. في تلك الأثناء كان هيرمان قد وصل لذات المكان وأخذ يعطي أوصافها لأحد المكلفين بتلقي البلاغات، سمعته إحدى المجندات فأخبرته أن الشرطة العسكرية قد سلّمتهم للتو شابة بنفس الأوصاف قالوا أنها صحفية لا تحمل أوراق هوية، وهي تتواجد الآن بقسم الطوارئ لتلقي الإسعافات ويمكنه الذهاب إلى هناك للتعرف عليها. تنفس هيرمان الصعداء وعادت الدماء إلى وجهه الشاحب، نسي كل تعبه ورغم أن قدماه تورمتا من المشي إلى أنه نزل الدرج المؤدي إلى قسم الاستشفاء بسرعة البرق. سأل إحدى العاملات هناك فدلّته على غرفتها، دخل عليها وما إن لمحته حتى قفزت من سريرها فرحا وعانقته. اشتعلت أحضانهما مجددا كأنه لقاء جديد بعد غيبة طويلة وانخرطا في وصلة عناق حار، كان القلق والتأثر باديان عليهما، تفحَّصها بلهفة وسألها إن كان قد أصابها مكروه؟ فهمست له بصوت خافت أنها بخير لكنها وقعت في ورطة لأنها أخبرتهم باسمها المستعار ولم يصدقوها لذلك أتوا بها إلى هنا ليتثبتوا من هويتها وهي لا تدري كيف ستتصرف؟ طمأنها وأخبرها أنه سيتدبر الأمر وليس عليها أن تقلق أبدا. فجأة دخل عليهما أحد عناصر الشرطة وقطع حديثهما بعدما طلب منهما مرافقته لمقابلة ضابط المناوبة.

كان هيرمان يعلم مسبقا أن القدوم إلى دريسدن وقت الحرب يقتضي كثيرا من الاحتراز لذلك تدبّر أمره تحسُّبا لموقف كهذا. عند سؤالهما، أخبر الضابط أنه صحفي ويعمل مراسلا حربيا لجريدة راديكال النمساوية واسمه هانز ماكين وأن السيدة هي زميلته وتعمل معه مصورة بنفس الصحيفة واسمها هيلدا ماتياس وقد تاهت بين دروب المدينة حتى عثرت عليها دورية للشرطة العسكرية، ثم سلّمه بطاقتي هوية وبطاقة مهنية تثبت صحة أقواله. كانت أورسولا مرتعبة مخافة افتضاح

أمرهما واكتشاف التزوير، على عكسها تماما كان هيرمان يتصرف بتلقائية وثقة بل وزاد بأن طلب من الضابط أن يسمح لها بالجلوس فهي مرهقة وقدماها لا تستطيعان حملها من شدة التعب، لم يُعقّب الضابط على كلامه وراح يُنَقِّل نظراته الشزرة بينهما وبين الهويات التي بين يديه كأنه يشك في شيء. فجأة ضغط على الجرس فدخل عليهم أحد العناصر وألقى عليه تحية عسكرية، طلب منه الضابط أن يتصل بمصالح الشرطة المركزية في برلين ويتحقق من المعلومات الشخصية المثبتة على الهويات بنفسه. صُعقت أورسولا من هول ما سمعته وكادت أن تسقط أرضا بعدما أغمي عليها للمرة الثانية لولا أن هيرمان تلّقفها وأمسك بها بين ذراعيه. اضطر الضابط أن يستدعي ممرضة المناوبة من أجل إسعافها مرة أخرى فأعادتها إلى قسم الاستشفاء وقرّرت الاحتفاظ بها هناك. اعترض هيرمان بلباقة على قرار الضابط قائلا أنه لا يمكن أن يبقى وزميلته محتجزين في مقر الشرطة حتى يتأكدوا من هويتهما لأن ذلك بالقطع سيستغرق وقتا طويلا كما أن لديه إثبات آخر لصحة ما يقول، ثم سلمه ظرفا أخرجه من جيب سترته وبداخله اعتماد رسمي من جهاز الغيستابو يحمل اسمه وصورته وممهور وموقع بالأختام الرسمية للشرطة السرية يسمحون له بموجبه بممارسة عمله والتجول بكل حرية. تفحص ضابط المناوبة تلك الوثيقة جيّدا فقد كانت مراسلات الغيستابو تُطبع عادة على ورق خاص وأختامه لا يمكن تزويرها، وكان ذلك الخطاب سليما تماما وخاليا من أية شبهة وكافيا جدا ليقتنع الضابط بصدق كلام هيرمان دونما الحاجة لأي إجراء آخر، لذلك اعتذر منه بلطف وقرر على الفور إخلاء سبيلهما وأخبره أن بإمكانهما المغادرة حال تحسن صحة السيّدة. لم ينتظر هيرمان طويلا ولحق بأورسولا إلى قسم الطوارئ ليُطمئِنها ويطمَئِن عليها، لكن الممرضة أخبرته أنها حقنتها بمُهدّئ سيجعلها تنام لخمس ساعات على الأقل فهي تعاني من ارتفاع في الضغط وشد عصبي قوي، استأذنها في طلب سيارة إسعاف

لنقلها إلى غرفتها بالفندق فهناك ستكون مرتاحة أكثر وستتحسن بسرعة، فلبّت طلبه.
أرسل الصباح أشعته الأولى مؤذنا بيوم جديد، فتحت أورسولا عيناها بتثاقل ولم تصدّق نفسها وهي ترى السقف الذي أَلِفت النظر إليه كلما استيقظت من نومها، أجالت بنظرها فيما حولها مستغربة ما يحصل ولتتأكد بأنها لا تحلم وأنها ممدة بالفعل على سريرها وفي غرفتها. تساءلت باستغراب يشوبه الفرح "هل كان كل ذلك الرعب مجرد كابوس؟" لكن فرحتها تأكدت وتضاعفت عندما وجدت هيرمان يجلس بجوارها على السرير يحتضنها بيد ويسند رأسه الذي أثقله النوم بيده الأخرى، أشعرها وجوده بالطمأنينة فأيقظته من غفوته، مسحت عينيه وألقت عليه تحية الصباح، سألها إن كانت تشعر بتحسن؟ لكنه لم ينتظر جوابها حيث أمسك يدها بحنان وقبّلها ثم استطرد بالقول "ألم أقل أن ليس عليك أبدا أن تقلقين وأنت معي؟" لم تُعقّب على كلامه لكنها أدركت أن ما عاشته بالأمس كان بالفعل مخيفا وكانت تلك ليلة استثنائية مليئة بالتفاصيل المرعبة وتستحق عن جدارة أن تكون مشهدا تراجيديا من مشاهد أكثر أفلام الرعب قسوة.

ليلة شتاءٍ ساخنة

بدأت أشعة الشمس تتلاشى تدريجيا في سماء دريسدن لتطوي يوما آخر من أيام ديسمبر الباردة وتفسح المجال أمام الليل كي يسدل أستاره الحالكة على المدينة. كانت أورسولا قد نالت قسطا من الراحة سمح لها بأن تستعيد بعضا من توازنها النفسي فوقفت أمام نافذتها المطلة على مروج الثلج الشمالية تُدخن السيجارة تلو السيجارة وتستحضر تلك اللحظات الصعبة التي عاشتها بالأمس. كانت تلك الجولة الصغيرة بين أزقة ودروب المدينة كافية لتأخذ فكرة مصغرة عن جحيم الحرب ومآسيها، وكشفت لها سر الوحشة والكآبة التي استوطنت نفوس غالبية الشعب الألماني. لقد باتت الأجواء رمادية على الدوام، إذا لم يكن بفعل الغيوم التي تحجب أشعة الشمس فبسبب الأدخنة المتصاعدة من أهداف القصف ورائحة البارود. لا صوت يعلو فوق صوت المدافع وهدير الطائرات حتى الأغاني التي تبثها أمواج الإذاعة لم تكن تعزف سوى صوت الحرب. دويُّ القذائف وانقطاع الكهرباء وصفارات الإنذار والاختباء في الملاجئ تحت الأرض كل ذلك كان روتينا يوميا فرض نفسه بقسوة على حياة الألمان، أمَّا الجوع والحرمان فقد باتا واقعا مريرا يتعايشون معه مرغمين. أضحت الكآبة ملازمة لهم بسبب قساوة العيش بل وأضحت طبعا متأصّلا في نفوسهم حتى انعكست على قَسمات وجوههم. زفرت أورسولا دخانا كثيفا من صدرها كأنها تريد أن تزفر معه همومها التي أوجعت خاطرها، لقد جاءت إلى هذه المدينة من أجل المتعة فقط لكنها أنزلتها عنوة من برجها العاجي وجعلتها تكتشف الوجه البشع للحرب وترى عن كثب حجم القهر والخوف والدمار. لقد كانت تسمع بويلات الحرب ومآسيها وتقرأ عنها في الصحف لكنها كغيرها من زوجات القيادات النازية كانت بمعزل عن حقيقتها المؤلمة وقسوتها. لم يكن ينقصها الشيء الكثير. لقد كانت مستمتعة برفاهيتها في مخابئها الآمنة والمريحة بالعاصمة حتى لو كانت تلك الرفاهية في حدّها الأدنى، لذلك كانت تدافع عن شرعية

الحرب بشراسة وترى أنها ضرورية من أجل مستقبل زاهر للرايخ العظيم. كانت تخطب في تجمعات النساء وتحثهن على الصبر وتقول لهن بأن ساعات الشدة والألم لهما نهاية حتمية تماما مثل ساعات الرخاء والفرح، لكنها أدركت اليوم أن الرخاء والفرح لم يكونا قسمة عادلة بين فئات الشعب مثلما هو الشأن بالنسبة للشدة والألم. أطفأت سيجارتها الأخيرة وأغلقت نافذة شرفتها ثم التفتت إلى هيرمان وسألته "وماذا بعد؟" كان سؤالها غريبا وغير متوقع لكنها استرسلت "ماذا بعد هذه الحرب وهذا الدمار؟ انظر حولك! في كل مدينة وكل البيوت والحانات والمقاهي والمسارح والإذاعة والتلفزيون حتى أجراس الكنائس والهواء الذي يتصاعد من الحقول والدم الذي يسري في العروق كل ذلك بات اليوم متوشحا بالسواد ولا يحمل سوى رائحة الموت، اليوم وبعد خمس سنوات من الحرب أكاد أجزم أننا لم نجن منها سوى الحسرة والألم والدموع، أما مدننا فقد أصبحت ردما من الرماد والدخان". لم يكن هيرمان ليُعقّب على كلامها فقد اعتاد أن يتحفظ عن الإفصاح عمّا في نفسه أمامها ويُطرق صامتا كلّما جرّهما الحديث إلى هذا الموضوع. فهيرمان وبرغم حساسية منصبه وكونه أحد الأشخاص الساهرين على حماية الرايخ من أعدائه إلاّ أنه كان من أشد المعارضين لهذه الحرب منذ البداية، وكان لا يُخفي حسرته على ضياع حياة ملايين البشر من أجل أطروحة الزعامة الكونية التي أطلقها هتلر، وبسبب ذلك كانت علاقتهما تتوتر ونقاشاتهما تصل إلى الباب المسدود، لكن ما قالته أورسولا هذه الليلة يُبرز بجلاء أن هناك بوادر تحوّل في قناعاتها فهي ولأول مرّة تتخلّى عن عجرفة المرأة المدلّلة سليلة العائلات العريقة في هامبورغ وزوجة الكولونيل النازي المتنفِّذ لتتحدث بلسان الإنسان العاقل والمتحرر من قيود العنصرية النازية. لقد لامست هموم البسطاء واقتربت من واقعهم ووقفت بنفسها على مشاهد الدمار في دريسدن ورأت ما يفعله الخوف والقهر والحرمان في نفوس سكانها لذلك طالتها شظايا كآبتهم. لقد خفّت حماستها للحرب وتغيّر مزاجها وغلبت عليها التعاسة حتى أفقدتها مرحها وأصبح مقامها في دريسدن

ثقيلا. لم يكن هيرمان يتوقع أن تأخذ الأمور هذا المنحى، لذلك أراد بأي شكل أن يجد طريقة لطرد سحابة الحزن التي خيّمت عليها وتحريرها من قيد اليأس الذي أحكم قبضته على قلبها. كانت هذه الليلة تُصادف الرابع والعشرين من ديسمبر، تذكر أنها ليلة عيد الميلاد عندما سمعها تدندن بلحن حزين:

في ديسمبر،
لن يأتي سانتا كلوز هذا العام
لن يرى الطريق من شدة الظلام
في ديسمبر،
تحول الثّلج إلى رماد
وتوشَّحت الحقول بالسواد

أوحت له بفكرة لم يعرف كيف غابت عن باله فقرر أن يستغلّ المناسبة ويقيم لها احتفالا صغيرا وبسيطا. عرض الأمر على مديرة الفندق ولم تمانع، بل سمحت له باستعمال غرفة معزولة في علّية الفندق. علّق الزينة على الجدران وتدبر شجرة صنوبر صغيرة من المخازن ثم وضعها في مكان مناسب بجانب الموقد، ولأن الاحتفال لا يتم دون وليمة فقد قام بتحضير حساء البطاطس المطبوخة مع الفطر وأحضر قنينة من الشمبانيا الفرنسية كان يحتفظ بها في صندوق سيارته سَبَق وأن جلبها معه من اللُّورين* إضافة لقطع الجبن والبسكويت. كان هذا العشاء وقت الحرب وفي ظروف كظروفهم يعتبر بالفعل وليمة فاخرة. رتّب كل شيء بلمسة أنيقة على الطاولة وزيّنها بشموع حمراء أوقدها، ونثر أزهار التوليب في أرجاء الغرفة ثم أطفأ الأضواء وخرج.

---

*اللُّورين: مقاطعة فرنسية احتلّتها ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية.

كانت أورسولا في غرفتها تسلي نفسها بتصفح إحدى الروايات التي أحضرتها معها من برلين، لم تكن تقرأ بقدر ما كانت تشرد. دخل عليها هيرمان فسألته عن سر الابتسامة العريضة التي تعلو وجهه؟ طلب منها أن تُغمض عينيها وتمسك ذراعه وترافقه. خشِيت أنه ينوي الإقدام على مغامرة ما لكنه طمأنها مؤكدا أنها لا يجب أن تخشى شيئا وهي معه. بدا لها الأمر مُشوّقا وهي بحاجة لبعض التغيير كي تكسر الملل فسارت إلى جانبه في الردهة متأبطة ذراعه ومغمضة العينين، صعد بها الدرج بتمهل فسألته مازحة إن كان ينوي أن يلقي بها من أعلى الفندق؟ لم يُعلّق على مزحتها وظل ممسكا بيدها حتى وصلا لغرفة العلية، فتح الباب وأدخلها ثم وقف خلفها وطلب منها أن تفتح عينيها.

كانت الشموع الحمراء تقدح فوق الطاولة والأزهار متناثرة في كل مكان، لم تصدق أنّها فعلا ستحتفل بالعيد، كانت فرحتها كبيرة جدا وهي تتفحص سطل الشامبانيا لكن فرحتها كانت أعظم بكثير وهي ترى شجرة الميلاد مهيّأة بكامل زينتها في مكانها الطبيعي بجانب موقد الحطب. كانت تلك الأجواء على بساطتها تنطق بالبهجة ومفعمة بالحب والرومنسية. همس في أذنها مُهنِّئا "ميلاد مجيد حبيبتي كل عام وأنت بألف خير"، لم تجد كلمات معبّرة لتشكره فعانقته بقوة. وشوش لها أن الفرح يبقى ممكنا رغم الحرب، فأنفاس الحياة أقدس من أن تكتمها أصوات المدافع ثم أخذ يدندن لها بعض الترانيم التي كان يحفظها:

ناعمة أنت كالثلج
دافئة كليلة الميلاد
بين أحضانك حبيبتي
سيولد الفرح
ولن يخطئ الميعاد

كانت أنفاسه الساخنة تلامس خديّها وتشعل رغباتها المتوقدة للعشق فانصهرت معه في قبلة سرمدية حارقة أذابت شفاههما حتى التصقتا ببعضهما، لقد عرف بالفعل كيف يكسر كآبتها ورتابة أيامها أيضا ولم تخطئ عندما أحبَّته فربما كان هذا الحب هو حافزها الوحيد للبقاء. أجلسها على المائدة وصبَّ لها حساء البطاطس الساخن المطبوخ بالفطر أخبرها بزهو أنه أعدّه لها بنفسه، فشكرته بلمسة حانية على خدّه. سادت بينهما أجواء حميمة كلّلتها أنخاب الشمبانيا بالفرح، لم يكن ينقصها شيء بل ونسيت كل ما كان يُعكّر مزاجها، ولأن عيد الميلاد هو عيد الهدايا أيضا فقد طلب منها بعد أن فرغا من العشاء أن تبحث تحت الشجرة الصغيرة ربما يكون سنتا كلوز قد بدأ بها رحلته وترك لها شيئا. كانت أورسولا تعرف أن مفاجآت هيرمان لا تنتهي لذلك جثت على ركبتيها ومدّت يدها تحت الشجرة فوجدت علبة ملفوفة أخرجتها وفتحتها من فورها لتكتشف بداخلها زوجا من الحمام من خشب السنديان يتوسطان عشًّا من لحاء الشجر. كانت تلك الهدية رغم رمزيتها تعني لها الكثير ولم يكن هيرمان بحاجة للكلمات ليُعبر لها عن حبه وأمنياته بحياة سعيدة فكل ما فعله من أجلها كان معبّرا أكثر من أي كلام. لم ينته الأمر هاهنا فحسب، بل أخرج أسطوانة لموسيقى صامتة اختارها بعناية ووضعها على الفونوغراف ثم طلب منها أن تسمح له برقصة عيد الميلاد. نهضت وانزوت بين أحضانه وراحت تراقصه.

لقد جعلها تستعيد فرحها رغم كل شيء وأثبت لها أن شمعة الحب قادرة على كسر عتمة اليأس، وشوشت له أنها لن تترك هذه الليلة الاستثنائية تمر دون أن تُقدّم له هدية تليق به. كانت تريد أن تمارس هوايتها في الوصول باللذة إلى أقصاها فأنهت رقصتها قبل أوانها ووضعت معطفها على كتفيها وارتدت قبعتها الصوفية وطلبت منه أن يلحق بها إلى الخارج. كانت تقفز الأدراج بسرعة دون توقف ولم تنس أن تأخذ معها قنينة الشمبانيا التي لم تفارق يدها. لحق بها هيرمان وهو يحاول

معرفة أي رغبات مجنونة اعترتها. كانت الثلوج بالخارج تحاصر مبنى الفندق ودرجات الحرارة في أدنى مستوياتها. أخبرته أوّلا أنها تريد أن تصنع "رجل الثلج" كي تكتمل طقوس الاحتفال ويمكنه مساعدتها إن هو أراد ذلك لكن عليه أن يعرف أنها تريده بأنف طويل وعينان بارزتان. لم ترقه الفكرة خصوصا وأن الأجواء كانت صقيعية فحاول ثنيها خشية أن تصاب بنزلة برد، أمسكها من يدها وقفل عائدا بها إلى الداخل لكنها أفلتت منه. كانت تشرب جرعات الشمبانيا مباشرة من القنينة وتضحك بصوت مرتفع ويبدو أنها فعلت فعلها وأشعلت نيران جسدها فراحت تجري أمامه في الساحة بجنون وهو يحاول اللحاق بها كأنه يطارد طفلة صغيرة. كانت قدماه تغوصان في أكوام الثلج فيتعثر ويسقط أرضا وتضحك هي من منظره، تمد له يدها لمساعدته على الوقوف لكنها تخدعه وتدفعه حتى يسقط ثانية وتهرب بعيدا عنه تغرف ندف الثلج وترمي بها في كل جانب. كسرت ضحكاتها الصاخبة هدوء المكان حتى انتبه إليها موظفو الفندق وتحلقوا وراء زجاج المدخل يراقبون ما يحصل. وقف هيرمان مستسلما أمام جنونها وراح يراقبها هو أيضا وهي تركل أكوام الثلج وتعب الشمبانيا كعربيد محترف. فرح لفرحها وابتسم طويلا ثم شاركها اللعب بتقاذف ندف الثلج من مكانه. أخيرا استعادت مرحها وتخلصت من قيد الكآبة الذي طوّق روحها قبل أن تتوقف فجأة عن الشرب واللعب بالثلج. ألقت بزجاجة الشمبانيا جانبا وسألته قائلة "ألا تريد أنت أيضا أن ترى هديتي؟" لم تنتظر جوابه لكنها ابتعدت عنه لبضع خطوات وقالت "حسنا أريد رأيك الآن" وطوّحت بقبعتها بعيدا في الهواء. كانت مديرة الفندق ومساعديها إضافة إلى الحارس متحلّقين حول بعضهم يراقبون ما يحصل في ذهول. شعر هيرمان بالحرج فحاول الاقتراب منها والإمساك بها لكنها فرّت منه وحذّرته ألاّ يفعل ذلك ثانية. أسقطت معطفها ونزعت كنزتها الصوفية وتنورتها الطويلة ثم تحررت من حزام الأرداف ومن

سروالها الداخلي أيضا. كانت تنزع ثيابها قطعة قطعة وترمي بها إليه وهي تتمايل. لم يُصدق أنها تفعل ما تفعله وفي هذا الجو الصقيعي فصرخ فيها قائلا "أرجوك حبيبتي يكفي هذا " لكنها أمعنت في ضحكاتها دون أن تأبه له. سألها متوسِّلا "ألا تشعرين بالبرد؟ سوف تمرضين" فلم تُلق بالا لتحذيراته بل دارت حول نفسها رافعة يديها إلى السماء وقالت "ما رأيك؟ ألا يُعجبك شكلي؟" ثم رمقته بنظرات ماجنة ونزعت حمّالة صدرها وتبانها وألقت بهما إليه ووقفت أمامه عارية تماما وقالت "الآن سيعجبك هذا أنا أعرف!! لقد أخبرتني بنفسك أن مشاهدة امرأة تنزع ملابسها أكثر إثارة من مشاهدة امرأة عارية، وها أنا قد حققت لك أمنيتك، إنها هديتي لك بمناسبة عيد الميلاد". لم يعرف كيف يتصرف، كانت أحاسيسه متضاربة بين الإعجاب بها والخوف عليها والحرج من العيون المتلصصة، لم تُنقذه سوى صفارات الإنذار التي أوقفت هياجها ووضعت حدّا لمغامرتها عندما دوّت بكل قوة مُؤذنة بفصل جديد من القصف، حينئذ فقط اضطرت أورسولا لإيقاف عرضها الساخن واستسلمت لهيرمان فلفّ جسدها بمعطفها وعاد بها مسرعا إلى غرفتها حيث كان مغطس الحمام مجالهما الأخير للاحتفال وإنهاء طقوس العشق تحت دفق المياه الساخنة.

للقمر أيضا جانب مظلم

ألقى الصباح تحيته الشتوية من وراء الغيوم مرسلا أشعة الشمس الخفيفة لتطرق نافذة أورسولا وتوقظها من نومها بعد ليلة الثلج والحب. كان هيرمان يجلس قبالة الشرفة يشرب فنجان الكاكاو الساخن ويخط بعضا من خواطره على كراسته التي اعتاد أن يحملها معه في أسفاره، لم يكن مولعا بالكتابة من قبل لكن أهوال الحرب تغيّر طباع المرء وتجعله يختزن كمّا كبيرا من العواطف والأحاسيس والتي لا مجال للتنفيس عنها إلاّ على الورق. استفاقت أورسولا من نومها فبادرها بتحية الصباح لتردّها عليه بصوت مثقل بأثر النوم ثم توجهت نحو الحمّام. طلب هيرمان من موظفة الخدمة أن تأتيهما بأحسن ما توفر لديهم من وجبات للإفطار، فقد حرص بنفسه على توفير بعض حاجيات الفندق بفضل علاقته بأحد التجار التشيكيين الذين قدموا من قرى بوهيميا* وعندما جلست أورسولا على الطاولة وجدت عصير برتقال وبيض مقلي وبعض الحليب الساخن مع القهوة والبسكويت، ابتسمت وسألته إن كان هذا أيضا من طقوس الاحتفال فمنذ وصولها إلى دريسدن لم تنعم بفطور مثل هذا. تبسم من كلامها ولم يعقِّب ثم وضع كرّاسته جانبا وقام ليصب لها الحليب بنفسه. سألته عن تلك الكراسة التي وضعها من يده فهي لم ترها من قبل؟ أجابها أنه اعتاد أن يدوّن عليها خواطره إضافة إلى بعض الأقوال والحكم المأثورة التي يقرؤها في الكتب أو يسمعها هنا أو هناك و تنال إعجابه، ثم جلس يشاركها إفطارها و يتجاذبان معا أطراف الحديث حول الشعر والأدب وما أصبح يُعرف في الأوساط الثقافية بأدب الحرب. تخطّت أورسولا أزمتها النفسية العابرة واسترجعت مرحها، فما قام به هيرمان من أجلها بالأمس كان له تأثير السحر. استأذنت منه وطلبت أن تلقي نظرة على ما كتَب فلم يُمانع وسلّمها الكراسة. في تلك الأثناء طرق أحدهم باب الغرفة، كان ذلك موظف

*بوهيميا: منطقة بجمهورية التشيك على الحدود مع ألمانيا، وهو الاسم القديم الذي عرفت به جمهورية التشيك عموما.

الاستقبال الذي جاء في طلب هيرمان لأن هناك من ينتظره في بهو الفندق ويقول أنه يريده في أمر خاص. لم يتأخر هيرمان ورافقه بعدما استأذن من أورسولا وتركها تكمل إفطارها بمفردها وتقرأ آخر ما كتب من خواطر.

التاريخ : أواخر ديسمبر 1943
المكان : دريسدن
العنوان : آيات الفرح

وتتوهج شمسك من جديد وتتوهج معها جذوة الحب في القلب. شجرة الصنوبر الصغيرة تصلي معنا ونحن نزرع شتلات الأمل نُهيل عليها تراب العشق ونعصر لها ثدي السماء لتزهر حبا في مواسم القُبل. هل تعلمين يا حبيبتي أنّني أبدأ كل صباحاتي باستظهار وِرد العشق من حروف إسمك؟ هل تعلمين أنك تراتيل النور القدسي المُهدى إلى قلبي المظلم من آلهة العشق، وأنك آيات الفرح التي تحفظني مع تباشير الفجر؟ أتساءل يا حبيبتي هل سيتركنا الزمن نغزل الأحلام من أجل وطن لا حرب فيه ولا موت دون أن يرمينا بسهام اليأس؟ أقولها وأشهد أني أحبك وأنت في جوزائك متربعة على أبراج القلب، أقولها وأشهد أني عمدت نفسي بالدمع وخلطته بماء الحياة لأسقي مروج السلام في بلداننا الثكلى حتى تزهر.
فتحت كلماته شهيتها لقراءة المزيد، لم تكن تعرِف أنه يُحسن كتابة الخواطر وكلام الحب مثلما يُحسن كتابة التقارير وأخبار الحرب. فقد كان هيرمان يختلف من حيث نشأته ووسطه الاجتماعي عنها. وإذا كانت هي سليلة عائلة ألمانية أصيلة وثرية من عائلات هامبورغ، فقد وُلد هو وترعرع في كنف عائلة فقيرة في إقليم السوديت* وعاني ظروفا قاسية جدّا جعلته يعيش طفولة صعبة في وطن مزّقته الحرب وتقاذفته الأطماع،

*إقليم السوديت : بالألمانية Sudetenland هو إقليم يقع غرب جمهورية التشيك على الحدود مع ألمانيا، كان جزءً من الإمبراطورية النمساوية المجرية وتم إلحاقه بتشيكوسلوفاكيا عقب هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، بموجب معاهدة فرساي سنة 1919. كان 95% من سكان الإقليم من الألمان وكان هتلر يتذرع به من أجل شن الحرب على تشيكوسلوفاكيا قبل أن يتم إعادته لألمانيا بموجب معاهدة ميونخ بضغط من ابريطانيا وفرنسا لتجنب اندلاع الحرب ودخلته القوات الألمانية في أكتوبر 1938. بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وهزيمة ألمانيا، استعادت تشيكوسلوفاكيا الإقليم وطردت منه معظم سكانه الناطقين بالألمانية إلى ألمانيا.

لكّنه تحصل على تعليم جيّد أهّله ليلتحق بالمدرسة العسكرية في برلين بعدما طردوه من مدرسة صف الضباط في براغ، لذلك تفوق على نفسه وصقل ملكاته التي أنضجتها قسوة التجارب حتى كوّن شخصية مُتفردة تثير إعجاب كل من يلتقي به.
كانت أورسولا تقرأ ما كتب باهتمام قبل أن يقطع تركيزها، ويعود إليها وقد غمره الحزن والدموع منحبسة في عينيه. سألته ما الخطب وما الذي غيّره بهذا الشكل؟ فأخبرها أنه تلقى خبرا صادما يؤكد تعرض قرى السوديت لقصف عنيف نفذّته القوات الجوية الألمانية أثناء مطاردتهم لبعض المتمردين التشيك الموالين لروسيا، والذين تسللوا إلى المنطقة وتحصنوا بجبالها ومن أجل القضاء عليهم تم تدمير تلك القرى بالكامل ودكّها فوق رؤوس سكانها.
كان ذلك الإقليم ذي الغالبية الألمانية أحد أسباب الحرب العالمية الثانية فقد كان في السابق جزءً من الامبراطورية النمساوية-المجرية ثم ألحقته معاهدة فرساي بجمهورية تشيكوسلوفاكيا وكانت سلطات براغ تنظر إلى الأهالي هناك بعين الشك والريبة لذلك كانت تعاملهم بقسوة وتمنع أبناءهم من الالتحاق بالجامعة أو الولوج إلى أسلاك الوظائف الحكومية، وهاهم اليوم بعد إلحاقهم بألمانيا التي يشتركون معها في العرق واللغة تعاملهم كمواطنين من الدرجة الثانية، تلاحقهم الشكوك وُيحرقون أحياءً تحت نيران القصف دون أن يكون لهم ذنب.
حاولت أورسولا أن تواسيه رغم أن كل عبارات العزاء التي فكّرت بها لم تكن لتسعفها في مثل هذه الظروف، فهي تعرف ارتباطه بالمكان الذي وُلد وترعرع فيه وناضل من أجله ضد آلة القمع التشيكوسلوفاكية. كان الإحساس بالغبن ينهش روحه وتملكه الغضب لدرجة جعلته يتخلّى عن صمته ويلعن هاته الحرب التي أحرقت الأخضر واليابس دون تمييز. حاولت أورسولا أن تخفّف من غضبه قائلة أن لكل حرب ضحاياها من الأبرياء، لكنه ثار في وجهها معترضا "لماذا؟ لماذا علينا أن

نساق إلى حتفنا مرغمين؟ لماذا يُراق دمنا على صفحات التاريخ تارة بسبب عرقنا وتارة بسبب الوطنية التي لم نر منها سوى الدم والموت؟ لماذا يريدوننا ألاّ نرى إلاّ ما يراه القائد؟ هل من العدل أن تزهق أرواح آلاف الأبرياء فقط لأن خطوط الطول والعرض لا تعجب هتلر ؟" كانت كلماته تخرج من فمه أثقل من الرصاص، أحست أنه يتهمها هي أيضا بنظراته لأنها متعصبة للنازية ولأنها طالما دافعت عن هذه الحرب لذلك لاذت بالصمت بينما جلس هو على الطاولة في يأس واضعا رأسه بين يديه.
اقتربت منه وربّتت على كتفه، لم تعرف أنه يُخفي دموعه التي غلبته وفرّت من محاجرها إلاّ عندما رفع رأسه ومسح عينيه بكلتا يديه. لم يسبق لها أن رأته هكذا، كأنّها تكتشف جانبا آخر من القمر لكنه بالقطع الجانب المظلم. عم المكان صمت مشوب بالحذر ثم قال بصوت خافت لا يخلو من ارتعاش "هل يجب أن نكون جميعا متشابهين وأن يكون دمنا أزرقا لنستحق الحياة؟ هل يجب أن نلوّن دماءنا وبشرتنا بلون واحد فقط لأن القائد أراد ذلك؟ وإذا حدث وتعكر مزاجه بسبب نزلة برد أو نزوة عابرة فسيختار أن يزهق أرواحنا مرة اخرى لأنه أخطأ في تمييز الألوان؟ لا يا أورسولا، لا، ليس من العدل ولا من الأخلاق أن تزهق ملايين الأرواح فقط لأن هناك شكوكا حول ولائها. فليس من الواجب أن نحمل جميعا نفس الأفكار أو نوافق عليها كي نستحق العيش بسلام. إن تلك الأفكار كيفما كانت تبقى نسبية لأن مصدرها بشري قابل للخطأ وليست حكما إلهيا واجب النفاذ، لذلك لا يجب علينا أن نسلم عُقولنا وزمام أمرنا إلاّ لمن يحترم آدميتنا ويحكمنا بالعدل والمساواة بغض النظر عن اللون أو العرق أو اللغة. يجب على هتلر وكل من يؤمن بالنازية أن يفهموا أن لون بشرتهم الأبيض لا يميزهم عن بقية البشر لسبب بسيط جدا فاللون الأبيض نفسه هو مزيج من ألوان متعددة والألوان كلها قد تنكسر على أجنحة الضوء ويحجبها الظلام مثلما ستنكسر النازية وكل الأفكار العنصرية على صخرة الإنسانية".

كانت أورسولا تنصت لكلامه في صمت ودون أن تعقب عليه، فما تفوَّه به كان خطيرا بل ويعتبر نوعا من الخيانة الفكرية للرايخ. وهي وإن باتت اليوم غير مقتنعة بجدوى هذه الحرب أمام عظمة الخسائر التي خلّفتها، إلاّ أنها ظلت في عُمقها مخلصة لوطنيتها ولا يمكن أن تنكص عن ولائها مهما حدث من أخطاء. لقد كانت مُدركة أن كلام هيرمان رغم خطورته إلاّ أنه لا يخلو من منطقية رومنسية لكن ذلك ليس بالحد الذي يجعلها توافق عليه، ورغم كل ذلك فليس أمامها الآن سوى مهادنته ومحاولة التخفيف عليه فهي أقرب الناس إليه وتعرف تأثير ما حصل على نفسه. قالت له "أعرف أن ما حدث مؤلم جدا، وصعب تقبّله حبيبي وقد يكون معك حق، لكن يجب أن تعرف أن الألم هو الوجه الآخر للحياة، وأن دموع الحزن طعمها مالح تماما مثل دموع الفرح لذلك ليس أمامنا سوى الصبر". كان هيرمان يعرف موقفها وكان يعذرها فهي بنظره ككل الألمان تعرضت طوال سنوات لغسيل دماغ مكثّف جعلها تتشبع بالأفكار النازية رغم كونها مجرد أفكار عنصرية في الأساس والقناعة التي رسّختها دعاية هتلر لسنوات لم تكن لتتزحزح أو تتغير بين يوم وليلة لكنه برغم ذلك كان يراهن على نقاء روحها وإنسانيتها وحسن نواياها، ولم يحمّلها -كما كانت تعتقد- مسؤولية ما حصل ولو في شقه المعنوي. جلس على كرسيه أمام الشرفة ومدّ رجله على الكرسي المقابل، ثم أشعل سيجارته وراح يصُب لنفسه كؤوس الفودكا ويعبُّها الواحدة تلو الأخرى قبل أن تتدخّل وتمنعه، فهي لم تره أبدا يُفرط في الشرب مثلما يفعل الآن خصوصا وأن الوقت لازال مبكّرا جدا والنهار لم يكد ينتصف بعد. طلبت منه أن يرافقها في جولة خارج الفندق فهي تريد أن تستنشق هواءً نقيا حول جنبات النهر خصوصا وأن الجو يسمح بذلك فلم يمانع. خرج معها وهي تتأبط ذراعه، كانت تمشي بجانبه وتُنظر إليه بين الحين والآخر لتتفحص تعابير وجهه فيما كان هو يرمي ببصره بعيدا وراء الجبال كأنما يريد أن يتطلع من مكانه لرؤية ما حصل بموطنه في السوديت وظل صامتا لم ينبس بكلمة حتى وصلا إلى استراحة مهجورة على جنبات

النهر. قالت له محاولة تطرية الجو "هذا هو مكاني السري الجميل في دريسدن، إذا لم تجدني يوما ما فستلقاني هنا حتمًا". ابتسم من تلميحها وقال لها أنه لن يتركها تضيع منه مرة ثانية، سيلحق بها سرّا ولن يُخبِرها بذلك. فرحت لأن غضبه بدأ يزول وطرأ تحسن طفيف على مزاجه. لمحت إحدى أزهار اللوتس تُطل برأسها من جانب النهر، فطلبت منه أن يُمسك بها جيدا ولا يُفلتها حتى لا تنزلق في الوحل أو تقع في المياه الضحلة. سألها ماذا تُريد أن تفعل فأشارت إلى الزهرة وقالت أنها تريدها. طلب منها أن تستريح ويقوم هو بجلبها لكنها رفضت وأصرّت على أن تقتطفها بنفسها رغم ما في ذلك من مشقة. أمسكها من يدها اليمنى وثبّت رجلها إلى برجله وتدلّت على حافة النهر حتى أمسكت بها وقطفتها ثم سحبها إليه ثانية فأعطته إياها وقالت أنها لم تقتطِفها إلاّ لتُهديها إليه. أخذها منها ووضعها على فمه، استنشق رائحتها بعمق وقبّلها ثم أعادها إليها. طلبت منه أن يثبتها بيده فوق أذنها اليسرى ويشدها إلى شعرها، ففعل مثلما أرادت وقال مغازلا بنبرة يطبعها الأسى أن الزهرة ستكون حتما سعيدة في موطنها الجديد. كانت ملامح الحزن غالبة عليه رغم هدوئه. سألته فيم يُفكّر؟ فلم يُجبها لكنه سحب نفسا عميقا من الهواء البارد ووقف أمام النهر ينظر إليه. احتضنته من الخلف ووضعت رأسها على ظهره وطلبت منه أن يُخرج كل ما في قلبه ولا يتردد، فهي لم تعتد أن تراه عابسا ولا تعرف كيف تُخرجه من حزنه. إلتفت إليها ونظر في عينيها العسليتين، بدت له امرأة أخرى غير التي عرفها في برلين، أمسكها من يدها واتجه بها تحت شجرة فلّين باسقة، جمع بعض أكوام القش وجلس عليه متّكِئا بظهره على الشجرة ثم أجلسها إلى جانبه. كانت تُطيل النظر إليه كأنما تريد أن تنفذ إلى أعماقه، مسح بيده على جبهتها وقال : "لقد كان معك حق، لولا الألم لما عرفنا طعم السعادة هذا صحيح، ولأن دموع الألم مالحة تماما كدموع الفرح فهنا تكمن المشكلة يا أورسولا، لقد تعبت، ولا أريد حياة بطعم الملح. إذا كان قدري أن أموت فمن حقي أن أختار الطريقة التي تناسبني لذلك وإذا كان قدري أن أعيش تعيسا فأنا

أريد أن أعيش تعاستي بلذة فقط ولا أطمع في أكثر من ذلك، لكن حتى التعاسة جعلوها في خدمة السياسة. أنا أقبل أن أعيش بقية عمري كئيبا شريطة أن تكون حياتي آمنة وأكون حرا في اختياراتي، قد لا أدرك ذلك لكنني سأحاول فإذا نجحت سأستحق شرف حريتي وإذا فشلت فسأختار طواعية أن أعيش حياة الرهبان وأتحول لكاهن في كاتدرائية بعيدة أو في دير على تلّة عالية لا صوت يُسمع فيه سوى صوت الأجراس والمطر. لكن فليسمح لي الرب وقتها بقليل من الحب فقط وسيكون الأمر رائعا جدًّا سأخلط كآبتي بالفودكا ورضاب القبل ودفء الأحضان وحينها فقط سيكون لحياتي معنى".

كانت أورسولا مولعة دائما بالبحث في المناطق الرمادية والغامضة في شخصية هيرمان، لذلك كانت تستفز بوحه كلما رأت مزاجه مُهيَّئًا لذلك، لكنها لم تشأ أن تفعل ذلك اليوم أيضا، لقد كان حزينا أكثر من أي وقت وكان يشعر بغربة عن كل ما حوله، لذلك أشفقت عليه ورأت أن عليها أن تبادر من أجله هذه المرة وتخرجه من حزنه فهو يستحق ذلك، ويستحق أن تبذل مجهودا من أجله. وقفت ومدَّت له يدها ثم سحبته إلى داخل الاستراحة المهجورة ثم نزعت عنه معطفه وفتحت أزرار قميصه وعينها تنظر إلى عينيه، تحسست صدره بيدها كأنها تريد أن تتلمس قلبه، ومرّرت إصبعها على شفاهه وهوت عليهما بقبلة حارقة ثم وشوشت له "أحبك". كانت أنوثتها الصارخة كفيلة بأن تشعل رغباته وبأقل مجهود، افترس شفاهها كأنه يريد أن يُذيب جبل الجليد المتكلِّس داخله في حمم القبل الملتهبة، نسيا حديث السياسة والحرب والإيديولوجية واستسلما لحديث القبل والأحضان. تفلّتت منه وتحرّرت من معطفها وكنزتها الصوفية ثم سحبته نحوها بلطف وحرّرته من ملابسه. كان يستجيب لها طائعا ودون تردد. صعدت فوق إحدى الطاولات وتمددت عليها وتمدد إلى جانبها ثم انصهرا معا في حديث الجسد للجسد فذلك هو النقاش الوحيد الذي لم يختلفا فيه أبدا.

العسل المر

يوم آخر يمضي ولا تزال أورسولا غارقة مع هيرمان في الحب والقبل وحديث الذكريات. لم تكن تغادر الفندق إلا لتستمتع بمنظر غروب الشمس على ضفاف النهر، لقد كانت تلك عادتها كل مساء فيما كان هو يتركها ويمضي إلى وجهة غير معلومة. سألته عمَّا إذا كان يخفي عنها شيئا أو إن كان ثمة شيء ينبغي لها أن تعرفه؟ لكنه كان يُحسن التملص من الإجابة بإغراقها في أحضانه وسرد أشياء بعيدة تماما عن فحوى سؤالها، غير أنه الليلة كان مختلفا والقلق باديا عليه. جعلها ذلك تستشعر أن شيئا ما يشغل باله وأثار فضولها فألحت عليه بقوة من أجل إجباره على الكلام الأمر الذي لم يجد معه بُدًّا من الاعتراف لها بأنه يقوم بالتواصل مع أحد زملائه في الغيستابو ليتأكد أن كل شيء على ما يرام، وأن زوجها الكولونيل كولن فالتر كولن لم يعد بعد من رحلته إلى وكر الذئب*، لكن هناك أمرا غريبا حصل. سألته ما هو؟ فأجابها أن مكتب زوجها الكولونيل تلقى بالأمس رسالة مشفرة باللاسلكي تخبره بانعقاد اجتماع مهم لهيئة أركان الحرب وأن عليه التعجيل بالحضور إلى وكر الذئب. صرخت أورسولا في وجهه عمَّا إذا كان يقصد أن زوجها قد حدث له مكروه؟ فقاطعها قائلا قد يكون هذا ولكن هناك احتمال آخر وهو الأقرب إلى التحقق. نظرت إليه تنتظر تفسيرا لكلامه فاسترسل بالقول أن أحدهم أخبره أنه رافق الكولونيل في رحلة خاصة إلى ضاحية بادن حيث .... وقبل أن يكمل كلامه قاطعته أورسولا مرة أخرى متسائلة باستهجان "بادن؟ تقول بادن؟ أمتأكد أنت مما تقول؟" أجابها أنه واثق من كلامه ومعلوماته وأكثر من ذلك فقد تحقق بنفسه من ذهاب زوجها إلى هناك وأنه سيترك لها تخمين السبب والإجابة بنفسها عن سؤالها فهي لا ينقصها الذكاء لذلك. استشاطت أورسولا غضبا من الغموض الذي يلف كلامه وسرعان ما تجهَّم وجهها

---

* وكر الذئب: رمز يطلق على المكان الذي كان يختبئ فيه هتلر أثناء الحرب العالمية ويدير منه عملياته، ويقع وسط الغابات القريبة من روستنبرغ (كيترزن حاليا) في غرب بولندة، وهو عبارة عن حصون ذات أسقف مغطاة بالعشب تحميها دوائر عديدة من الأسلاك الشائكة، و حقول الألغام و موانع دفاعية يصعب كشفها أو اختراقها.

وقالت له بنبرة حادة "أدرك أنه ليس زمن المعجزات ولا يوجد رجل فوق هذه الأرض لم يلوّث جسده بعرق العاهرات، لكن كولن أخبرني أنه لديه عمل في روستنبرغ وقد أصر على أن ألحق به إلى هناك بمجرد عودتي من زيارة أختي في هامبورغ لأنه يتوقع أن تطول إقامته ليكون إلى جانب الفوهرر وربما حتى نهاية الحرب، لكن ما تخبرني به الآن يعني أنه كذب عليّ ولم يكن في مهمة كما أخبرني ولكنه كان يخونني مع إحداهن في بادن فماذا يعني ذلك؟" حاول هيرمان طمأنتها وتهدئتها بالقول أن زوجها ربما استغل بدوره هذا الوقت الذي يفترض فيه أنها ستزور أختها المريضة ليعبث قليلا مع حبيبته النمساوية كلارا لبضعة أيام قبل أن يسبقها ويلتحق بروستنبرغ. ثم أوحى لها بخبث إن كانت تود أن يؤمن طريقها فبوسعه أن يفعل ذلك لأنه من المؤكد أن سلوك غابات بروسيا الشرقية بمفردها يعتبر مخاطرة غير محسوبة العواقب. كان عرض هيرمان في واقع الحال مجرد محاولة ماكرة منه لاستدراج أورسولا كي تبوح له بتفاصيل رحلتها المقبلة إلى روستنبرغ، فلا أحد كان يعلم أين يختفي هتلر إلاّ بعض الأعضاء المعدودين على رأس الأصابع من قادة الجيش والأجهزة الأمنية والذين يُشكّلون الدائرة الضيقة للأشخاص الذين يثق بهم، وكان زوج أورسولا أحدهم، وقد نجح هيرمان في الإيقاع بها حينما أجابته بأنها لن تكون لوحدها بل سترافق إيفا براون* حبيبة القائد. وأنَّ هناك رتلا أمنيا من الشرطة العسكرية التي عادة ما تؤمن نقل مستلزمات الفوهرر وبعض أعوانه سيخرج بعد منتصف ليلة الاثنين الأخير من ديسمبر من برلين ليُقِلّهما وأن لديهم أوامر عليا بخفر الموكب حتى يصل بأمان إلى وجهته. تظاهر هيرمان بعدم الاكتراث بما قالته أورسولا رغم خطورته وكأنه لم يُلق بالا بما سمعه بل صرف الحديث عن رحلة روستنبرغ إلى الحديث عن زوج أورسولا مُعربا عن استغرابه لإيلائها أهمية شديدة لموضوع

*إيفا براون: ولدت في السادس من فبراير/شباط هي حبيبة هتلر، وبعد زواجها منه أصبح اسمها إيفا آنا باولا هتلر، ارتبطت بهتلر كعشيقة وهي لم تتجاوز الـ 18 من العمر، احبته بشكل جنوني وانتقلت من ميونخ إلى برلين لتكون بجانبه، تزوجها قبيل لحظات من برلين حيث لم يدم زواجهما أكثر من أربعين عاما وانتحرت معه بعدما تناولت سم السيانيد فيم أطلق هتلر على نفسه الرصاص في الثلاثين من أبريل / نيسان 1945وتم وإحراق جثتيهما من طرف معاوني هتلر حتى لا تقعا بيد الحلفاء.

كهذا فهي تعلم أن زوجها يقيم علاقات غرامية مع النساء منذ أمد بعيد وهذه ليست المرة الأولى على كل حال، ثم صبَّ لها كأسا من النبيذ الساخن وقدَّمه لها وطلب منها أن تنسى الأمر برمته داعيا إيّاها للاستمتاع بمُقامهما وبما تبقى لهما من تلك الساعات القصيرة التي باتت تفصلها عن العودة إلى برلين فربما لن يلتقيا بعدها، ولا أحد يعلم ما ستؤول إليه الأوضاع.
لم تكن أورسولا تَكِنّ لزوجها أي نوع من المشاعر ولم تكن تهتم لخياناته المتكررة التي لم يكن هو أيضا ينكرها أو حتى يبذل أي جهد لإخفاءها، لكنها رغم ذلك لم تعرف سببا للانزعاج الكبير الذي انتابها بعدما سمعته على لسان هيرمان. كانت متأكدة أن ذلك لم يكن غيرة على رجل اعتاد أن يغير العشيقات مثلما يغير ربطات العنق، لكن الأكيد أن كلام هيرمان زرع في نفسها بذور قلق مجهول المصدر، ورغم كل شيء فليس أمامها الآن سوى تجاهل الأمر والاستمتاع بما بقي لها من ساعات في دريسدن، وقبل أن تخلد إلى النوم كان عليها أن تباشر هيرمان بتحذير قائلة "طبعا كل ما سمعته هذه الليلة عن روستنبرغ ورحلة الاثنين ستنساه مع أول شعاع لضوء الفجر تفهمني حبيبي؟" أجابها بثقة "لا داعي أبدا للقلق فربما كنت أعرف ذلك من قبل؟ لكن من أجلك عزيزتي سأنسى تماما كل ذلك كأني لم أسمع شيئا بالمرة"، كانت نبرة صوته باعثة على ثقة خادعة ثم طبع قبلة على ناصيتها وجعلها تنام على صدره حتى الصباح.
في تلك الأثناء التي كانت أورسولا تنام فيها تتقاسم السرير والأحضان مع عشيقها هيرمان وتستمتع معه بالحب الدفء، وعلى النقيض ممّا أخبرها به بشأن زوجها الكولونيل كولن فالتر كولن، كان هذا الأخير معتكفا إلى جانب هتلر في مخبئه وسط غابات بروسيا الشرقية ولم يغادره أبدا، بل كان يعقد الاجتماعات ليل نهار حيث كان هتلر قد كلّفه شخصيا بمُهمة غاية في الأهمية في إطار حرب الجاسوسية المستعرة. كانت العمليات الاستخباراتية ميدانا آخر تفوق فيه الألمان وبرعوا فيه مدة سنوات وكان لحرب المعلومات الفضل الكبير في حسم كثير من المعارك وبأقل الأضرار، فامتلاك المعلومة

يعني امتلاك مفاتيح الحرب. ففي سنة 1940 تمكنت الأجهزة الألمانية من إلقاء القبض على عملاء هولنديين يعملون لصالح البريطانيين، وأدّى ذلك إلى وقوع وثائق خاصة بشفرة الاتصالات العسكرية البريطانية عبر اللاَّسلكي. تمكن الألمان تبعا لذلك من اختراق اتصالات الجيش البريطاني وقاموا بتسريب أخبار كاذبة لهم جعلت البريطانيين يقومون طيلة سنتين ونصف بغارات جوية ومعارك برية وبحرية على أهداف وهمية لم يكن لها وجود استنزفت قوَّتهم ووقتهم وعتادهم وكلّفتهم أموال طائلة، ومكّنت الألمان من تحصين دفاعاتهم في عدة مواقع خصوصا في هولندا وبلجيكا وفرنسا قبل أن يكتشف البريطانيون ذلك ويغيّرون استراتيجيتهم، لذلك رأى هتلر أن يقوم بنفس الشيء مع السوفييت لكن بطريقة مغايرة. كان على الكولونيل كولن فالتر كولن أن ينجح في الإيقاع بالسوفييت ويوهمهم بأن هتلر أمر بتنفيذ انسحابات تكتيكية من الجبهة الجنوبية بنية توجيه قواته نحو سواحل البحر الأسود ومباغتة السوفييت من الجنوب ومحاصرتهم من ثلاث جهات. وكان كولن فالتر كولن يُعوّل في ذلك على أعوانه في رومانيا وتشيكوسلوفاكيا وأوكرانيا حيث كان يعمل على ربط الاتصال بهم تِباعا ومدّهم بالمعلومات "السرية" المراد تسريبها كي تلتقطها الشبكات السرية العاملة لحساب روسيا وترسلها إلى موسكو. كان هدف هتلر من هذه المهمة هو دفع ستالين لسحب بعض قواته من الغرب وإرسالها للجنوب تحسبا من أجل صد الهجوم الألماني الوهمي، فذلك سيخفف الضغط على قواته في الجبهة الشعبية وسيُمكنه من إعادة ترتيب أوضاعه والتقاط أنفاسه قبل القيام بهجمات مضادة واستعادة التوازن، لكن التنسيق السوفيتيي-الأمريكي جعل تداعيات تلك العملية على الأرض محدودة للغاية ولم تُعط النتائج المرجوة منها، ليقرّر هتلر بعدها أن يُخرج أوراقه كاملة حيث دفع بكل قواته الاحتياطية إلى الجبهات الأمر الذي رفع حالة الاستنفار إلى أقصاها ما يعني القيام بمزيد من التعبئة العسكرية واستنزاف

المزيد من طاقات وقدرات الشعب الألمانية المادية والنفسية والتي كانت قد وصلت بالفعل إلى نهايتها.

رقصة التانغو الأخيرة

أرخى الظلام سدوله تماما على دريسدن، البرد شديد جدا هذه الليلة وزخات الثلوج لم تتوقف بل كانت تأتي ومعها زخَّات البارود المسكوب من السماء. باتت أخبار هزائم الجيش ألمانيا في الجبهة الشرقية، تتوالى تباعا وأسقطت في طريقها أسطورة الجيش الذي لا يقهر. أصبحت أمسيات ديسمبر أكثر قسوة من ذي قبل. امتزجت أخبار الحرب السيّئة مع برودة الشتاء في توليفة غريبة جعلت الأجواء صقيعية أكثر وأرغمت أورسولا أو فراون هيلدا كما كان يحلو لهيرمان مناداتها على للرضوخ في يأس ولأول مرة لزجاجة الفودكا بدل النبيذ الساخن. كان شعورها هذا المساء مختلفا، أحاسيسها متضاربة وينتابها قلق مجهول لم تستطع الموسيقى الهادئة المنبعثة من الفونغراف تهدئتها فاستبدلتها بموسيقى التانغو الثائرة. كانت تدخن بشراهة وتفرك يديها ببعضهما وفجأة ركزت نظرها على هيرمان، ابتسمت حين رأته يُقلِّب في صفحات إحدى الجرائد القديمة فخاطبته هازئة "أظنك حفظت كل ما قد كُتب في تلك الجريدة التي اهترأت بين يديك، فمنذ قدومنا إلى هنا وأنت تُقلّب صفحاتها كل يوم كأنها ستلد لك أخبارا جديدة من تلقاء نفسها". ضحك من كلامها وطوى الجريدة ثم وضعها جانبا واستلقى على السرير ساندا رأسه بكفيه وابتسامته تعلو وجهه وقال "إن من حسنات الشتاء، أنه يُقرّب بين الأخلاء فاقتربي". تخلّت نسبيا عن عبوسها واقتربت منه، ودون أن ترفع بصرها عنه وضعت زجاجة الفودكا جانبا على الطاولة. سألته قائلة: " لماذا تحب الشتاء وأنت لا تتحمل البرد؟ تتلقف زجاجة الفودكا كما يتلقف رضيع جائع ثدي أمه؟" فأجابها "تسألينني دائما لماذا أحب الشتاء؟ حسنا، إنه فصل البرد والحب والذكريات، وحده الشتاء يعطي للدفء قيمته ويمنحنا سببا وجيها للعناق، لكن هذا كله لن يكون ممكنا إذا لم تكن هناك أنثى رائعة وجميلة مثلك"، كان

يُكلّمها ويداعب خدها بيد بينما يتحسس يدها باليد الأخرى ثم أضاف "إن الولع بالشتاء مقترن كمتلازمة بالولع بالنساء فوجودهن كفيل بهزيمة قساوة البرد والحرب أمّا وجودك فإنه يُحوّل الشتاء والفصول كلّها إلى ربيع دائم. معك لا أشعر بالبرد وبإمكاني أن أستغني عن الفودكا أيضا، يكفي رُضابك ليُسكرني" أعجبها قوله فابتسمت ثم قالت " تبًّا لك كم عليّ أن أتوب في اليوم من مرَّة؟ لطالما هزمت الشيطان وتجاهلت غوايته، لكن غوايتك أقوى من غواية الشيطان، بل لربما كنت أنت الشيطان نفسه؟" حينئذ نظر إليها بنظرة تعرفها جيدا وقال "أنا أغويتك وأنت استجبت لي، لا دخل للشيطان في الأمر فالحب أكبر وأطهر من أن يكون مُجرد وسوسة" فهمت ما كان يرمي بكلامه ولم تشأ أن تُعقّب بل نظرت في عينيه وقالت "سأحبك دائما حتى لو كان هذا في حكم الرب خطيئة، ولربما كان هذا السبيل الوحيد للتكفير ولو بشيء قليل عن خطيئتي بحق نفسي" أجابها قائلا "ربما أخبرتنا نواميس السماء أن الغواية هي أول طريق للخطيئة، لكنها خيرا فعَلت حينما سمحت لنا بها، لولا الخطيئة لما عرفنا طريق التوبة والصلاح، فالخطيئة هي طريقنا الأول إلى الله ربما كانت الملائكة تتمنى لو أن الرب سمح لها بالقليل منها ". كان حوارهما مُمتِعا رغم أن تبريراته لم تكُن منطقية بنظرها لكنها شعرت بتحسن في مزاجها وراحت تزاحمه في مكانه على السرير، حشرت نفسها إلى جانبه ثم قالت "هيا إذن أيها الوغد لتقوم بعمل مفيد".

لقد كانت أورسولا تحت تأثير رغبة جامحة لممارسة الجنس ليس من أجل المتعة فقط ولكن لتمارس هوايتها في التمرد وكسر كل القواعد. أرادت أيضا أن تتخلّص من التوتر والقلق والأفكار السلبية وليس أمامها من وسيلة لكل ذلك سوى الفراش. كانت تعتليه وتقوم بحركات لم يعهدها من قبل كأنها تريد أن تروّضه أو ربما كانت تريد أن تمارس تمرّدها بطريقة ناعمة، لذلك لم تترك له حرية المبادرة بل كانت هي المتحكمة

في كل شيء. أدرك بعد لحظات أنها لم تكن تترنح فوقه عبثا بل كانت تساير إيقاعات موسيقى التانغو التي تغريها بالرقص. لم ينبس بكلمة ولم يرغب في كسر تركيزها أو التشويش على نغمات الكونترباس والكمان وهما يتغلغلان داخل روحها بتناسق شجي جعلاها تنتفض. استسلم لها وتركها ترقص رقصتها فاسحا المجال للأحاسيس والألحان كي يقولا كلمتهما واكتفى بمشاهدتها تتلوى أمامه كراقصة ساحرة ومثيرة. كانت حركاتها بطيئة تارة وسريعة تارة أخرى كأنها منساقة تماما لتعليمات المايسترو شأنها شأن بقية العازفين. وبرغم أن حركاتها تلك كانت تزيد من هياجه إلاّ انه لم يكن يملك حق المبادرة كانت هي المتحكمة في شيء بل وسافرت إلى عالم آخر غير عالمه. كانت تريد أن تغادر واقع الخوف والموت والحرب الذي تعيشه، دون أن يعترضها أحد، لذلك كانت تشل حركته كلما همّ بالتخلص من قيدها فتشده إلى الأسفل حتى لا يجمح منها. لوهلة أحسَّت بالرغبة في أن تتعرى من جلدها وتتخلى عن قيود الوطنية التي باتت تكبل الألمان منذ أن تربع هتلر على سدة الحكم. نسيت كل ما كان يشغل بالها وغابت بكامل إرادتها عن الوعي. اختفى هدير الطائرات الذي كان يرعب قلبها ولم تعد تسمع سوى إيقاعات التانغو تدب تحت جلدها لتخرج كالعرق من مسامها. كانت تملأ رئتيها بهواء ديسمبر البارد فيسري باردا في أعماقها ليحررها من حزنها ويعتقها مثل غجرية رومانية أو أيبيرية متحلِّلة من كل القيود. ارتفع الإيقاع وارتفعت معه حركاتها وبقيت تتسارع وتتسارع فيما كان هيرمان تحتها يغمض عينيه كأنه يريد اللحاق بها إلى عالمها، شدَّت على كتفيه بقوة ودفعته ليغرق في السرير بينما عرجت هي إلى السماء ثم صرخت وهي في قمة رعشتها "أحبك، أحبك، كم أحبك يا كارلوس غارديل* وهوت بين ذراعي هيرمان خائرة القوى ومستسلمة لتعبها ثم غطت في نوم عميق، بينما استمر كارلوس غارديل في عزف مقطوعته الفونغرافية وحيدا حتى الصباح.

* كارلوس غارديل: هو موسيقي من أصول فرنسية ولد في مدينة تولوز سنة 1890 وهاجر مع والدته للأرجنتين ليصبح من أشهر رموز موسيقى التانغو في العالم. توفي سنة 1935 في حادث جوي إثر اصطدام طائرة كان يستقلها في كولومبيا.

على الجانب الآخر كانت الأجواء العامة في ألمانيا وكل دول المحور على صفيح ساخن. فالتعبئة العامة وصلت أوجها. كل من يستطيع حمل السلاح من الرجال وحتى الأطفال كان يتم إرساله إلى الجبهة أو المعسكرات . اعتاد هتلر أن يكون هو المبادر دائما بالهجوم، اليوم انقلبت الآية وأصبح في وضعية الدفاع وأصبحت الحرب مسألة وجود، فالأعداء يزحفون من كل جانب ولا بد من القتال بشراسة لصدهم قبل أن يقتحموا آخر خطوط الدفاع. إذا سألت شابة في ألمانيا أو النمسا أو بولندا عن شكل الحياة التي كانت تحلم بها قبل اليوم، فستأخذ نفسا عميقا وتخبرك بأن كثيرا من الملذّات ومظاهر الرفاهية كان يمكن لها التنازل عنها واختزالها في قبلة واحدة من رجل يُحبّها ويمنحها الدفء والأمان لتكون في غاية السعادة. لكن حتى هذا لم يعد ممكنا في زمن الحرب، فكيف يتبادلون القبل وهم يضعون أقنعة الغازات طوال الوقت؟ بدورها تلك السيّدة ذات النظارات الطبية التي جاوزت عقدها السادس واعتادت أن تجلس عصر كل يوم خلف زجاج شرفتها ترتشف قهوتها أو تصنع من كرة الصوف كنزه دافئة لأحفادها وهي مستمتعة بمنظر الثلج يكسو الطرقات ويغطي أسقف البيوت المائلة، باتت اليوم ينكسر قلبها كلَّما تلقت رسالة من ابنها المتمترس خلف خطوط النار تملأ الدموع عينيها وهي تقرأ كلماته الحماسية حين يصف لها بطولاته في ساحات القتال ويحاول إقناعها أنه ورفاقه إنما يحاربون من أجل ألمانيا قوية، وأنهم سينتصرون من أجل حياة أفضل لها ولكل الأمهات والنساء في الرايخ العظيم. يكتب لها ذلك ظنّا منه أن كلماته الرنانة سترسم ابتسامة الفخر على وجهها وتبدد غمامة الخوف والأحزان لتحل محلها تباشير الأمل، لكنها في واقع الحال كانت تتمزق ألمًا وهي ترى زهرة شبابه تذبل وتفنى من أجل إثبات كذبة مُروِّعة. إن تلك الفتاة وتلك الأم وتلك الزوجة

في ألمانيا وغيرها من دول المحور كلّها كنَّ مدركات أن هذه الحرب التي يراها النازيون مقدَّسة ما هي إلاّ جريمة لن يدفع ثمنها غيرهن، فبعدما تأكل النيران رجالهن على الجبهات وفي المعسكرات سيأتي الدور عليهن ليقعن فريسة سهلة بين مخالب الذئاب البشرية ويراق شرفهن في الشوارع وعلى الأرصفة والطرقات تحت أقدام الجنود الروس وأجسادهم. لكن وبغض النظر عن ذلك كلِّه فإن ما يؤلم حقا هو نهاية ذلك العامل الذي تقوّس ظهره طيلة سنوات وهو يحمل فأسه ليُكسر الصخر ويُفتِّت الحجر ويحفر الملاجئ والأقبية تحت الأرض ليحتمي بها النساء والأطفال في المدن، ثم يحفر الخنادق ليتمترس داخلها الرجال على جبهات القتال ومات في نهاية المطاف دون أن يجد من يحفر له قبرا يستريح فيه ليتم التخلص من جثته المتحلّلة بإلقائها في محرقة جماعية مع مئات الجثث والأشلاء والنفايات البشرية. كأن القدر كتب على من لم تنَل منه النيران حيًّا أن تأكل لحمه ميّتا في أضخم حفلة شواء والتي لم تعرف لها البشرية مثيلا عبر التاريخ.

شمس الحرب الغاربة

اخترقت أشعة الشمس الستائر الغامقة وانسلت إلى داخل غرفة أورسولا لتداعب وجنتيها المتوردتين، أيقظتها من نومها بصعوبة. تحسست بيدها مكان هيرمان فلم تجده، كان قد غادر فراشه مبكرا جدا. نهضت واعتدلت في جلستها وبقيت كذلك لبرهة تمسح أثر النوم بيديها على وجهها وتفرك عينيها. ألقت نظرة على ساعة الحائط حيث كانت تشير إلى تمام الحادية عشرة صباحا. التفتت يمينا ويسارا فوجدت غرفتها تغرق في فوضى عارمة، زجاجات الفودكا والنبيذ متناثرة هنا وهناك بعضها على المنضدة وبعضها ملقى على الأرض وبقايا الأكل على السرير في منظر مقزز. طلبت موظفة الخدمة بالهاتف وانتظرت لدقائق حتى طرقت بابها، طلبت منها أن تحضر لها إفطارا يتكون من عصير برتقال مع بيض مقلي وكأس شاي وبعض البسكويت، لكن المضيفة اعتذرت بشدة عن تلبية طلبها مبررة ذلك باشتداد ظروف الحرب وانقطاع الطرق حيث لم يتمكن ممونو الفندق من توفير أي شيء من ذلك، حتى الشاي لم يعد متوفرا بالقدر الكافي بعدما تم توجيه كل المخزون لدعم المجهود الحربي، لكنها وعدتها أنها ستتدبر لها كوبا من الكاكاو للإفطار مع بعض البسكويت. لم تُخْفِ أورسولا تذمرها لكنها شكرتها على اهتمامها وسألتها أن تقوم قبل ذلك بإرسال إحدى الخادمات لتنظيف الغرفة في الوقت الذي تأخذ فيه حماما ساخنا. أجابتها المضيفة أنها ستتولى ذلك بنفسها لأن الفندق خال من الزوار ولم يعد بإمكانهم تدبر نفقات الموظفين والخدم والحراس، لكنها طمأنتها وقالت أنها ستجد الغرفة نظيفة والإفطار على مائدتها بمجرد خروجها من الحمام. لم تُعقِّب أورسولا على كلامها وشكرتها بإيماءة مقتضبة وحملت منشفتها ثم دخلت لتستحم تحت دفق المياه الساخنة، كان ذلك هو الترف الوحيد الذي تركته لها الحرب لذلك كانت تحدث نفسها باستياء وتقول الآن فقط أدرك كم كان ويليام غلادستون* صادقا عندما قال أن

الحرب مأساةٌ يستعمل فيها الإنسان أفضلَ ما لديهِ ليُلحقَ بنفسه أسوأ ما يُصيبه.
ألقت أورسولا بنفسها في المغطس المملوء بالمياه الساخنة والصابون، كان بخار الماء يتصاعد بكثافة حتى حجب عنها الرؤية ووضعت رأسها على مسند جلدي لتبقي رقبتها مستقيمة وأغمضت عينيها للحظات حتى أحست بارتخاء عضلاتها وخفَّ الصداع الحاد الذي كان يقسم رأسها إلى نصفين من فرط الشرب. في غمرة الهدوء الذي كان يلف المكان، سمعت صوتا غريبا قادما من الجانب الآخر للجدار وكان يأتي مباشرة من الغرفة المجاورة لغرفتها. حاولت التركيز قليلا لتستبين طبيعته لكنها لم تستطع، كأنها دقات ساعة الحائط أو صفير متقطع، لم تهتم كثيرا للأمر وانتظرت حتى انتهاء مضيفة الفندق من أشغال توضيب وتنظيف الغرفة، وأنهت بدورها استحمامها، فشطفت جسدها وائتزرت بمنشفتها وخرجت لتلبس ثيابها وتجفف شعرها ثم تناولت إفطارها على مهل. أحسَّت ببعض الضجر وانتابها الفضول لمعرفة مصدر الصوت الذي سمعته أثناء الاستحمام، فقامت وفتحت باب غرفتها وأطلَّت برأسها يمينا ويسارا لم يكن ثمة من أحد يتواجد في الردهة، انسلَّت وحاولت فتح باب غرفة هيرمان لكنها فوجئت بأنه موصد. زاد الأمر من فضولها، ففكرت في أن تطلب من المضيفة نسخة من المفتاح لكنها تراجعت ليقينها أن إدارة الفندق لن تسمح لها بذلك. بعد يأسها من الدخول لم تجد بُدًّا من وضع أذنها على الباب واستراق السمع لكن دون جدوى فالصوت ضعيف جدا ولا يكاد يصل. فجأة سمعت خطوات أحدهم قادما من آخر الردهة كأنه يصعد الدرج، عادت بسرعة إلى داخل غرفتها وبقيت متسمرة خلف الباب تنتظر من القادم. كان وقع الخطوات على الباركيه يقترب أكثر فأكثر، فجأة توقف بمحاذاة باب غرفتها. انتابها شعور بالخوف، ترى من يكون ولماذا توقف

---

* ويليام غلادستون: (1809- 1898).أحد أشهر السياسيين البريطانيين، تولى رئاسة وزراء بريطانيا أربع مرات، وفي عهده شهدت الامبراطورية البريطانية أوج توسعاتها من ضمنها احتلال مصر.

عند بابها؟ لكن الشخص الغريب فتح باب الغرفة المجاورة ودلف إليها ثم أعاد إغلاقه. تساءلت في صمت "أتراه يكون هيرمان؟" تذكرت أنها فرصتها المناسبة لدخول الغرفة فخرجت مسرعة وطرقت الباب ثم فتحته ودخلت دون انتظار إذن بذلك لتفاجأ بوجود شخص آخر غيره بالداخل. كان ذلك موظف الاستقبال بالفندق وغالبا ما تكون مداومته في الفترات المسائية أو بالليل، أحسَّت بإحراج شديد وارتباك وقالت معتذرة "آسفة لاقتحامي الغرفة لكنني اعتقدت أن...." فقاطعها الرجل مهدِّئا من روعها قائلا لا عليك فراون هيلدا أعرف أنك اعتقدت إن هير هانز هنا، لكنَّه خرج مبكرا وجئت لآخذ القمامة والملابس من أجل الغسيل. لم تعقب أورسولا على كلام العامل واكتفت بابتسامة خفيفة وتمتمت بكلمات غير مفهومة لكن نظرها كان زائغا وكانت تجول بعينيها في جميع أركان الغرفة باحثة عمَّ يمكن أن يكون شيئا غير مألوف. لمحت طاولة جانبية صغيرة وكان عليها جهاز راديو فاعتقدت أن يكون على الأغلب هو مصدر ذلك الصفير المتقطع الذي سمعته من الحمام لكنها لاحظت أيضا وجود آلة إلى غريبة جانبه طالما رأت مثيلاتها في مكتب زوجها لكنها لا تتذكر فيم كان يستعملها أو لم تصلح بالضبط. عاود موظف الفندق مقاطعة شرودها قائلا "هل أستطيع مساعدتك بشيء فراون هيلدا؟" فانتبهت أنها أطالت المكوث بدون سبب ثم كرَّرت اعتذارها وشكرته وغادرت إلى غرفتها. لم تكد تمض سوى دقائق معدودة حتى عاد هيرمان إلى الفندق وقبل أن تسأله عن سبب خروجه المبكر وأين ذهب؟ بادرها هو بطلب بدا لها مفاجئا، فقد أخبرها أن عليها الاستعداد لمغادرة الفندق هذا المساء لتعود إلى برلين وأي تأخير في ذلك قد يكون له عواقب وخيمة. سألته في دهشة عن السبب فأجابها بنبرات يطبعها التوتر الشديد قائلا "هناك تحول خطير في سير العمليات على الأرض. لقد انتصر السوفييت في معاركة حاسمة واستعادوا السيادة على روستوف ثم قاموا بالزحف على المناطق الشرقية الواقعة تحت سيطرة قواتنا وأسقطوها تباعا وقد سيطروا على معظم الأراضي الأوكرانية والرومانية، ومن

المتوقع أن ينفذوا هجوما على بوهيميا المتاخمة لنا في أي وقت، لذلك فالبقاء في دريسدن يعتبر ضربا من المخاطرة وقد تحاصرنا الثلوج هنا وتقطع الطرق البرية الآمنة ولا تتمكنين من اللحاق بزوجك في روستنبرغ ولا حتى العودة سالمة إلى برلين لذلك عليك المغادرة هذه الليلة". سقطت الأخبار التي ساقها هيرمان على صدر أورسولا ككرات الثلج، فهي ككل الألمان كانت تثق في القوة الألمانية الضاربة التي لا تقهر، لكن يبدو أنهم تحملوا كل هذه السنوات العجاف من أجل أن يذوقوا طعم هزيمة أقسى وأمر من تلك التي تجرعوها بعد نهاية الحرب العالمية الأولى. انتبهت أورسولا من صدمتها وسألته كيف ستتصرف الآن خصوصا وقد رتبت أمرها على أن تعود معه؟ لكن هيرمان لم ليترك شيئا للصدفة فقد تدبر لها طريقة سريعة وآمنة بالقدر الكافي لتصل إلى برلين. أخبرها أنها سترافق تاجرا يعرفه جيدا لأنه ينحدر من سوديتلاند وسيخرج الليلة من دريسدن مع زوجته وأطفاله ليلتحقوا جميعا بالعاصمة وأنها ستكون بأمان وسيكون مطمئنا عليها، بينما سيحاول هو فيما بعد أن يلحق بها إلى برلين. لم تجد أورسولا أمامها خيارا آخر سوى تنفيذ تعليماته رغم أن فكرة عودتها رفقة التاجر الغريب وعائلته إلى برلين بدت لها مخيفة، لكن ثقة هيرمان به بعث في نفسها بعض الأمان فشرعت في وضع أغراضها ومتعلقاتها في حقيبتها بينما خرج هو ليرتب رحيلها مع إدارة الفندق.

لم تكن مغادرة أورسولا للفندق تحتاج في واقع الأمر إلى أي ترتيب، لكن هيرمان كان يريد أن يجد سببا مقنعا لينسل منها ويستفسر من موظف الاستقبال عما حصل في غيابه، وهل ثمة أخبار جديدة يُمكنه أن يزوده بها. لكن موظف الاستقبال أخبره عن اقتحام أورسولا لغرفته دون إذن ودون سبب وجيه، كأنها تبحث عن شيء ما. سأله هيرمان ان كانت قد انتبهت لوجود جهاز الإرسال اللاسلكي الذي كان موضوعا على المنضدة؟ لكن الموظف طمأنه وأكد له بأنها لم تلحظ شيئا، إلا

أنهما اتفقا على نقل الجهاز من الغرفة إلى مكان آخر خارج أسوار الفندق تحسبا لأية مفاجآت.
في حقيقة الأمر لم يكن موظف الاستقبال ذاك وزميلته سوى مواطنين ألمانيين معاديين للنازية اعتنقا المبادئ الشيوعية وآمنا بها مثل كثير من العمال والمزارعين البسطاء في أوربا وقد كانا يعارضان الحرب التي أشعل فتيلها هتلر، لذلك كانا يتعاونان مع شبكة سرية عرفت باسم "بؤرة الضوء" وهي شبكة جاسوسية تجمع تحت مِظلّتها عدة خلايا سرية أسَّسها رجل تشيكي اسمه نيدفيد أولمرت هرب خلال فترة الاجتياح الألماني إلى اسبانيا وقاد من هناك عمليات نوعية ومهمة لحساب الاستخبارات السوفيتية ونجح فعلا في تكوين شبكة مهمة من العملاء والجواسيس المناهضين للنازية في أوربا كلّها. كان هيرمان بدوره أحد أفراد تلك الشبكة وكان يزود موظفة الخدمة بالتقارير التي يتحصل عليها من إدارة الغيستابو عن تحركات القوات الألمانية وكذلك كل ما يتعلق بهتلر من أكل وشرب وعادات يومية وما كان يُصرّح به للمقربين منه عن نواياه وخططه، فتقوم بمساعدة زميلها بإرسالها إلى الاستخبارات الخارجية في موسكو مع حزمة أخرى من المعلومات التي ترد إليهما من بقية المتعاونين المؤمنين بالفكر الشيوعي وكانا يستعينان في ذلك بجهاز إرسال لاسلكي الأمر الذي يفسر إخلاء الطابق الأخير بكامله من الزوار حتى يضمنا أمن وسرية عملياتهما من جهة ويحصلان على تدفق جيد للإرسال من جهة أخرى كون الطابق الأخير يعتبر أعلى مكان في الفندق وفي المنطقة بكاملها.
على الجانب الميداني شكّلت الهزائم التي تكبّدتها الفيرماخت أمام الجيش الأحمر السوفييتي في كل من موسكو وستالينغراد وروستوف وكييف ضربة قاصمة لمعنويات الجنود الذين كانوا متشبعين بفكرة الجيش الذي لا يقهر، وبدأ الشك والخوف يتسلل إلى نفوس الكثير منهم لذلك كان على القيادة الألمانية وبتوصية من الغيستابو تدارك الوضع. روّج هتلر لفكرة مفادها أن الهزيمة لم تكن بسبب ضعف الفيرماخت ولا تفوق السوفييت ولكن الظروف الطبيعية والشتاء القاسي هما من

منعا جيش ألمانيا من إكمال حرب البرق*، فضلا عن انتشار جواسيس سوفييت يروجون للإشاعات ويقومون بالتهويل من قيمة الخسائر لبعث روح الهزيمة في الشعب والنيل من عزيمة الجيش الألماني، لذلك أمر جميع قواته بإعادة تنظيم نفسها والثبات على الجبهات من أجل استعادة الأراضي التي خسروها معتبرا أن ما حدث لم يكن سوى كبوة يجب تخطّيها. كانت خطب هتلر تتسم بالحماسة والإقناع دائما، فقد كان الحديث أمام الجماهير مجاله الذي برع فيه قبل حتى أن يتولى زمام الحكم وقد نجح هذه المرة أيضا في تحفيز جنوده وبعث الحماسة فيهم ورفع روحهم المعنوية.

*حرب البرق: (Blitzkrieg) تكتيك عسكري يقوم على عنصر المباغتة والضرب بقوة لإفقاد العدو توازنه وتشتيت خططه وكان هتلر أول من خطط لهذا النوع من الهجمات الخاطفة والتي كان يبدؤها بقصف مدفعي مكثف متزامن مع قصف جوي، ثم يليها بتدخلات نوعية لفرق المشاه والمدرعات، وقد حقق هذا التكتيك نجاحات باهرة على عدة جبهات، لكن قسوة الشتاء الروسي بسبب سمك الثلوج جعل الأرض طينية وغرقت الدبابات والجنود الألمان في الوحل ولم يستطيعوا أن ينفذوا ضربتهم بالدقة المطلوبة مما منح الجيش الأحمر فرصة تجميع قواته وتنظيم دفاعته والقيام بهجمات مضادة.

على الساعة السادسة مساءً كان التاجر ينتظر بعربته في الخارج ومعه عائلته ينتظر أورسولا في الموعد المتفق عليه. أحسَّت بانقباض شديد يعصر قلبها وكأن روحها تنخلع منها وهي تودع حبيبها هيرمان، احتضنته طويلا ولم تستطع مغالبة دموعها لكنه تماسك أمامها. انتابها شعور غريب كأن هذه اللحظة ستكون آخرة مرة تراه فيها لذلك كانت تطيل النظر إليه. الآن فقط وبعد سنين طويلة عرفت أن الفراق هو الوجه الآخر للخيبة وأنه الدليل المؤلم على وجود الحب. صعدت للعربة وهي تفكر، لطالما كانت تلوم نفسها على خيانتها لزوجها مع هيرمان الآن فقط أدركت أن ما كانت تفعله ربما لم يكن خيانة بالقدر الذي كان حقها المشروع في الموت بكامل إرادتها على ركح الحياة، فهي تسخر منا ولا تمنحنا ما نطلبه منها في وقته المناسب مثل هذا العشق الجارف الذي لا يأتي دائما إلا بعد فوات الأوان. كان هيرمان هو أيضا يشعر بالأسى والألم وهو يراها تبتعد، كانت نظراتها الحزينة إليه من وراء الزجاج تخترق قلبه وتملأه بالدموع. لم يشك أبدا بأنه كان الرجل الوحيد الذي سلمته نفسها بعد زوجها وكان مدركا تماما أن ذلك يشكّل بكل تأكيد حملا ثقيلا على نفسها ولكنها فعلت وهذا دليل أخر على قوة الحب. فالحب هو الذي جعلها تتمرد على زوجها وعلى كل الرجال وتستسلم له هو بالذات، والحب هو الذي دفعها إلى تحمل مشاق السفر ومجاهل الطريق والإقدام على مغامرة المجيء إلى دريسدن من أجله، فحبه في قلبها كان أكبر من الخوف ومن الحرب ومن الموت نفسه، لكنه ككل حب على هذه الأرض غير محصَّن من أن تدنسه الخيانة، فالخيانة كما وصفتها مدام دو جيراردان* كالموت لا تسمح أبدا بالفوارق.

انطلق التاجر بعربته، كانت أورسولا تجلس في المقعد الخلفي وعيناها مسمّرتان عبر الزجاج إلى هيرمان والدموع تملؤهما، وكان يُلوّح لها بيده ويتمنى لو أن الأقدار تجمعه بها في مكان آخر وظروف أخرى غير هذه لربما وجد حبهما فرصة كي

*مدام دو جيراردان (1804 -1855): هي دلفين دو جيراردان، كاتبة وصحفية فرنسية مدافعة عن حقوق المرأة.

يعيش تحت ضوء الشمس، فجأة توقفت العربة ونزلت منها أورسولا، عادت إليه تجري وارتمت في أحضانه، التحمت شفاههما في قبلة حارقة وقالت له "عدني أنّنا سنتقابل مرة ثانية، عدني أنك ستأتي إلي وأن نكون لبعضنا مهما طال الزمن" كان التأثر باديا عليه وهو يُمسك رأسها بين يديها وينظر لعينيها المشتعلتين عشقا. أخبرها أنه سيفعل وسيبقى يحبها طالما بقيت روحه تسكن جسده وطلب منها أن لا تفقد الثقة بهذا الحب مهما حدث، لكنه طلب منها أيضا أن تسرع بالمغادرة فلم يعد هناك وقت. تذكرت كرّاسة الذكريات التي كان يدوّن عليها خواطره فطلبتها منه، أرادت أن تحتفظ بها كذكرى ووعد باللقاء وتعيدها له عندما يتقابلا ثانية. فكّر قليلا ثم صعد إلى الغرفة وجاءها بها طلب منها ألاّ تفتحها ولا تطّلع على ما كتبه حتى تعود إلى برلين فوافقت دون أن تسأله عن السبب. احتضنته وطبعت قبلة على خده وعادت لتركب السيارة التي انطلق سائقها هذه المرة بسرعة دون أن يُفسح لها المجال للتفكير بالعودة.

حرب الثعالب

تبلغ المسافة بين دريسدن وبرلين أقل من مائتي كيلومتر بقليل، كانت الطريق معبدة بشكل سيء وتتخللها نقاط عديدة للمراقبة والتفتيش وحواجز للشرطة العسكرية، فضلا عن كونها مكسوة كليا بالثلوج مما جعل التاجر يقطعها بسيارته في أكثر من خمس ساعات مرت على أورسولا كأنها خمسة أشهر. كانت متوترة وقلقة والأفكار مزدحمة في رأسها، لقد أيقنت أن الحرب لم تعد تسير كما أراد لها النازيون وأن هناك أيام عصيبة تنتظر الألمان. فكّرت أن تلحق بزوجها في روستنبرغ كما طلب منها لكنها ظنّت أن ذلك اللعين ربما لا يزال منغمسا في الوحل مع عشيقته النمساوية، كما أن وجوده في حياتها لم يعد له معنى لذلك قرّرت أن تطلب الطلاق مهما كلّفها ذلك فليس لديها اليوم ما كانت تخشى عليه بالأمس، لذلك عزمت على السفر عند أختها هيلين في هامبورغ، فهناك ستكون في أمان أكثر من أي مكان آخر وليذهب كولن ومعه هتلر وعشيقته إلى الجحيم.
وصلت أورسولا إلى بيتها في برلين عند منتصف الليل تقريبا، رفعت سماعة الهاتف وطلبت مكتب زوجها. أجابها ضابط المناوبة فأمرته أن يرسل خبرا إلى الكولونيل في أي مكان يتواجد به ويبلغه أن حالة أختها المريضة في هامبورغ قد ساءت كثيرا وأنها ستعود للبقاء بجانبها لمدة ستكون حتما طويلة، وبالتالي فعليه أن يتدبر أمره بدونها، كما أنَّها لن تستطيع أن تقوم بالمهمة التي طبلها منها. لم تنتظر بعد ذلك كثيرا قامت على الفور بإيقاظ خادمتها البولندية من نومها وطلبت منها تحضير نفسها لمرافقتها في رحلتها فغيابهما عن برلين سيطول هذه المرة. امتثلت الخادمة لأوامر سيدتها وجهزت حقيبتها وطلبت من حارس الأمن أن يتجهز هو أيضا ولكن فقط ليقلهما بعربة الخدمة إلى المحطة حيث ستستقلان أوَّل قطار متجه إلى هامبورغ.

كان السوفييت على الخصوص ومعهم البريطانيين أيضا مقتنعين أن هتلر بشخصيته المفرطة في الشوفينية والعناد سيظل العقبة الأبرز أمامهم لإيجاد أي حل لإيقاف هذه الحرب، وأن بقاءه على قيد الحياة سيجعل أي اتفاق للهدنة أو السلام مع ألمانيا مجرد حبر على ورق فقد جرّبوه مرارا وعرفوا أنه ليس بالرجل الذي يمكنهم الوثوق بتعهداته لأن عناده وأنانيته المتعنتة يمنحانه القدرة على نكث كل عهوده دون أن يرف له جفن متى سنحت له الفرصة لذلك. لقد كان بديهيا بالنسبة إليهم أنه على استعداد للتضحية بملايين الألمان وكل من يدور في فلكه من أجل إثبات قوته وسطوته على العالم، لذلك لم تكن تدابيرهم لتفتر في السر والعلن عن محاولة قتله والتخلص منه.
كان هتلر بدوره مدركا للأخطار التي كانت تحدق بحياته وكان شديد الحذر حتى من أقرب المقربين إليه، لذلك لم يكن يطلع أحدا على أماكن تواجده وكان يغيرها باستمرار. لكن ورغم كل احتياطاته فقد استطاع السوفييت - بفضل تعاون هيرمان - أن يقتربوا أكثر من أي وقت مضى من تحديد موقعه في ضواحي روستنبرغ وما عليهم الآن سوى وضع خطة محكمة لتعقب الرَّتل الذي سيخرج من برلين من أجل الوصول إليه واغتياله، فتلك هي الوسيلة الوحيدة المتبقية لكبح جماح جنونه ووقف نزيف الموت الذي حصد حتى الآن أرواح ملايين البشر.
لم يتأخر السوفييت كثيرا، فقد أصدرت مخابرات موسكو أوامرها لهيرمان بالمضي في مُهمّته إلى آخرها، ولم تتركه بمفرده بل ساعدته في تكوين خلية جمعت بالإضافة إليه عناصر ألمانية متشبعة بالفكر الشيوعي، منهم ضابط بسلاح الجو الألماني (لوفتفافة) اسمه هيبير فون تعرّف عليه بتوصية من أولمرت نفسه، وفي نهار يوم الاثنين الأخير من ديسمبر 1943 كان صحفي آخر اسمه فون بولت يقف أسفل بناية تقع في أطراف العاصمة تقيم بها المصورة الشابة "إيفا براون"، وكان بولت مكلّفا بمراقبتها ورصد تحركاتها عن كثب. كانت إيفا براون في بدايات الحرب شخصية مجهولة لغالبية الألمان حيث لم يكن أحد من الضباط ولا الجنرالات ولا حتى السياسيين

يعتقد أن هذه الشابة التي تبلغ بالكاد ثمانية عشر عاما من العمر على علاقة غرامية بالفوهرر العجوز، فلم يسبق لها أن ظهرت إلى جانبه في أي نشاط رسمي أو اجتماعي وذلك راجع لحرص هتلر نفسه على الظهور أمام الشعب بمظهر الرجل القوي والملتزم الذي لا يخضع لمشاعر الحب والزواج، فتلك في نظره أمور تضعف شخصية القائد وتشغله عن شؤون البلاد، لكن مع توالي السنوات أصبحت ملازمة له وتم تقديمها لوسائل الإعلام على أنها مصورة فوتوغرافية تنتمي للدائرة الضيقة للزعيم والتي تحظى بثقته. لكن هيرمان استطاع أخيرا كشف علاقتهما والفضل يعود طبعا لأورسولا التي باحت له بهذا السر وعليه فقد قرّرت الخلية تعقبّها حتى توصلهم إلى وكر الذئب.

مع تمام منتصف الليل وقفت سيارة مصفحة تحت بيت إيفا ركبتها والتحقت مباشرة برتل مؤلف من خمس عربات عسكرية مصفحة كانت تنتظر خارج برلين توجهت جميعها إلى غابات بروسيا الشرقية. طبعا لم تكن عمليات التمويه التي قام بها الرتل كافية للإفلات من عيون المراقبة المتربصة بها خصوصا وأن هيرمان وزميله هيبير فون كانا بدورهما عسكريين وكانا مدربين على عمليات الرصد والتعقب الدقيق وكشف أساليب التمويه والتخفي وقد نجحا في مهمتهما واستطاعا تحديد مكان هتلر بدقة.

بعد مرور أيام قليلة على كشف المكان السري الذي كان يختبئ فيه هتلر، توصل هيرمان وهيبير فون ومعهما ضابط آخر برتبة كولونيل اسمه أوستر فريديرتش يعمل منسقا لوحدة اللاسلكي بخطة أعدتها القيادة الروسية في موسكو تهدف لاغتيال هتلر عبر عمليتين متزامنتين أطلق عليهما اسم "فكي الملقاط". تقضي تلك الخطة بقيام الكولونيل أوستر باجتياز الساتر الخرساني والحراس ودخول وكر الذئب ليقوم بعد ذلك بزرع قنبلة موقوتة شديدة الإنفجار وتدمير المبنى بكامله شريطة أن يغادر المكان قبل وقوع الانفجار مباشرة، ثم يعطي إشارة عبر اللاسلكي للملازم طيار هيبيير فون كي يقوم هو الآخر بطلعة جوية فوق ذات المبنى بتزامن مع حدوث الانفجار ويقوم بقصف ركامه

بالمتفجرات لضمان موت كل من في البناية وإحراقهم تحت الأنقاض وإحباط أي محاولات محتملة للهروب سواء عبر الأنفاق أو داخل الغابات. أما هيرمان فدوره يأتي قبل ذلك حيث تم تكليفه باستصدار استدعاء للكولونيل أوستر من قيادة الغيستابو يطلبون فيه حضوره إلى وكر الذئب لملاقاة الفوهرر، فهذا الاستدعاء هو الذي سيمكن أوستر من تجاوز المتاريس الخارجية والحراس دون أن يثير شكوك أحد.

استغرب هيرمان بشدة هذه الخطة وأسرَّ لزملائه أنه بالإمكان الاكتفاء بالضربة الجوية فقط بدل تعريض حياة الكولونيل أوستر للخطر، لكن هذا الأخير شرح له أن الضربة الجوية قد لا تكون دقيقة بما يكفي لقتل هتلر خصوصا وأن البناية تتواجد وسط غابات بروسيا الكثيفة وأن هناك احتمال قوي أن تُسقط الدفاعات طائرة هيبيير بمجرد تحليقها وقبل أن يستهدف بنيرانه الهدف المنشود أو على الأقل سيتم تحذير هتلر وبالتالي سيتحصَّن في الأقبية أو ينسل هاربا عبر الأنفاق. أمَّا إذا نُفِّذ التفجير مباشرة من داخل بناية هتلر فذلك سيُعجِّل بالقضاء عليه أو على الأقل إصابته كما أنه سيربك باقي الأجهزة الأمنية وقد يشل حركتها تماما وحينئذ سيكون للطلعة الجوية حظوظ كبيرة لإتمام المهمة والإجهاز على هتلر والقضاء على كل أمل له في النجاة.

ترك السوفييت مسألة تحديد ساعة الصفر لعملية "فكي الملقاط" للمجموعة التي ستنفذها تبعا للظروف والترتيبات السائدة على الأرض، واعتمادا على المعلومات التي قد يتحصلُّون عليها لاحقا والتي من المحتمل أن تساعدهم على تحقيق أهدافهم، لكن يمكن القول أن وصول أنباء عن دعوة هتلر لاجتماع قيادة الأركان في ظهر يوم الخميس 27 يناير/كانون الثاني 1944، جعل ذلك التاريخ محل إجماع بين كل عناصر المجموعة للتعجيل بها.

كان الهدف من الاجتماع هو مناقشة وضع الجيش الشمالي الذي كان يحاصر لينينغراد خصوصا بعد تمكن القوات السوفيتية من كسر الطوق الذي كان يضربه الألمان على المدينة وفتح معبر

لنقل الإمدادات والأقوات إليها عبر جسر نهر نيفا، كما أن القوات السوفيتية تمكنت فعليا من تحرير شليسيلبورغ والشاطئ الجنوبي لبحيرة لادوغا.
بعد مرور أسبوعين كانت جميع الترتيبات تسير وفق الخط المرسوم لها تماما، فقد تمكن هيرمان من تزويد الكولونيل أوستر باستدعاء للالتحاق بمقر الفوهرر ومَهَره بتوقيع مزور للكولونيل كولن فالتر كولن ووضع عليه تأشيرة الغيستابو. كما تمكن أوستر بدوره من الحصول على قنبلة قابلة للتفجير بفتيل يدوم خمسة عشرة دقيقة ووضع القنبلة في حقيبة عسكرية وختمها بالشمع الأحمر النازي لتفادي أي محاولات محتملة لتفتيشها، ومع انتهاء اللمسات الأخيرة التحق كل فرد منهم بموقعه في انتظار ساعة الحسم.
مع انبلاج فجر يوم الخميس 27 يناير أرسل هيرمان رسالة لاسلكية الى أولمرت يقول له فيها "إن الخنزير البري سيتم طهيه اليوم على الغذاء حضِّروا الأنخاب". كانت التطورات الميدانية على الجبهة الشرقية تسير متسارعة لصالح السوفييت، إذ لم يعد بمقدور الجيوش النازية الصمود أكثر ونفذت انسحابات متتالية أمام القوات السوفيتية التي تمكنت من استرجاع مدن بوشكين وغاتشينا وتشودوفو، أمام هذا الوضع لم يكن أمام هتلر أية خيارات سوى إصدار أوامره إلى قواته برفع الحصار نهائيا عن لينينغراد والانسحاب من المعركة، دون انتظار اجتماع قيادات الجيش.
كان الغيستابو باعتباره جهاز الاستخبارات الأول في ألمانيا مكلّفا بالأمن الوقائي للبلاد وتحييد أي خطر قد يتهددها من خلال جمع الأخبار والمعلومات وحماية تنقلات كبار القادة وضمان أمنهم وسرية تحركاتهم ورصد كل محاولات الاختراق، وقد نجح رجالاته فعلا في القيام بعمليات نوعية على قدر عال من الفعالية خصوصا على الجبهة الغربية، إلاّ أنه كان خاضعا بدوره لرقابة جهاز أمني آخر تابع للحزب النازي وهو جهاز "شوتزشتافل" الذي عرف اختصارا بالـ "SS" وهو تنظيم شبه عسكري أنشأه هتلر سنة 1925 وكان مستقلا تماما

عن أجهزة الدولة ومهمته حماية الفوهرر وتأمين حياته وأماكن إقامته وكذلك تعقب العملاء والخونة المناهضين للنازية والعاملين من داخل الأجهزة الألمانية خصوصا قيادات الجيش والمخابرات والحزب النازي. تمكنت مليشيات "الإس إس" هي الأخرى من القيام بعمليات كبرى وكشفت آلاف الجواسيس والمتواطئين، كما أعدمت ملايين الأفراد من الشيوعيين واليهود والغجر والمثليين حتى من دون محاكمات ونشرت الرعب في نفوس المعارضين لسياسات هتلر والنازية بل ونكّلت بمئات الآلاف منهم بالشبهة فقط ودون أدلة وأرسلتهم لمعسكرات الاعتقال.

استطاعت ألوية القوات الخاصة تلك التقاط رسالة هيرمان اللاسلكية التي أرسلها لأولمرت فجر يوم العملية ولم يكن خافيا عليهم معناها، فقاموا من فورهم بتحذير هتلر وإبعاده عن مكان الاجتماع دون إلغائه. كان هدفهم من ذلك طبعا هو نصب كمين للمجموعة المنفذة والإمساك بخيوط المؤامرة كاملة.

دقت الساعة الثانية بعد الزوال التحق أعضاء القيادة جميعهم بمقر الاجتماع في وكر الذئب وكانت أعين الغيستابو متيقظة كالعادة لما يجري حولها، لكن ألوية الـ "SS" كانت أكثر ترقبا لما سيجري. تم تفتيش جميع القادة الحاضرين للاجتماع تفتيشا دقيقا رغم تذمر بعض الضباط إلا أن الجميع كان يرضخ للأوامر فلا شيء أكبر من أمن الفوهرر، حتى تلك اللحظة كانت الأمور تبدو روتينية لكن بعد بداية الاجتماع بدقائق وفي غياب الفوهرر طبعا حضر ضابط آخر لم يكن أسمه واردا في كشف القيادات المدعوة للاجتماع، لم يكن ذلك الضابط سوى الكولونيل أوستر الذي جاء وهو يحمل استدعاءً من مكتب الكولونيل كولن فالتر كولن شخصيا. تفاجأ أوستر بوجود ضباط الـ "SS" بالبوابة الخارجية بدل ضباط الغيستابو الذين عادة ما يتولون أمر مراقبة الاجتماعات السرية وضمان أمنها، هذا الأمر لم يكن يعني له سوى شيئا واحدا وهو أن العملية قد اكتشفت وأن أمره قد افتُضِح. فكر في حيلة للتراجع أو حتى الهرب لكن الوقت كان قد تأخر، فقد اشتبهوا به وقاموا بتوجيه

بنادقهم نحوه فلم يجد بدّا من الاستسلام لهم حيث اعتقلوه وقاموا باقتياده مصفد اليدين وإدخاله عنوة إلى حجرة جانبية محاذية للساتر الخرساني المحيط بالبناية. بعد ذلك بقليل تم استدعاء كل من الكولونيل كولن فالتر كولن وضابطين كبيرين آخرين من الـ"SS" لمباشرة التحقيق معه. لم يخطر ببال الحراس أن الحقيبة التي كانت معه كان بها قنبلة جاهزة للانفجار ولسوء حظهم كان أوستر قد أشعل فتيلها الذي لن يدوم أكثر من ربع ساعة. فكّر في إخبارهم بالأمر لكنّه كان موقنا بأن الإعدام سيكون - في كل الأحوال - نهايته المؤكدة وبالتالي كان اختياره الأخير هو ألا تزهق روحه مجانا وإذا كان لا بد من الموت فليكن من أجل القضية واختار ألاّ يموت بمفرده. لم تكد تمر الدقائق الخمسة عشر حتى حضر الكولونيل كولن فالتر كولن ومعه عقيد آخر بالـ "SS" ومساعده، نظر إليهم الكولونيل أوستر بابتسامة عريضة لم يفهم أحد معناها سوى المساعد لأنه كان أول من انتبه إلى الحقيبة، لكن وقبل أن يفتح فمه بكلمة كان الفتيل قد وصل إلى نهايته وانفجرت القنبلة ناسفة الحجرة بكاملها ومحدثة تصدعا كبيرا في الحاجز الإسمنتي لتحصد معها أرواح كل من كان بالمكان وأولهم الكولونيل كولن فالتر كولن زوج أورسولا.

أضواء العتمة المبهرة

في صباح اليوم الموالي طرق رجلا أمن بزي مدني باب المنزل الذي تقيم فيه أورسولا مع أختها في هامبورغ وطلبا منها مرافقتهما إلى مقر الغيستابو لأن هناك أمرا يهمها ويجب إطلاعها عليه. ارتابت أورسولا من أمر الرَّجلين وحاولت التملص منهما بعدما أصرت على معرفة ما يريدونه دون مرافقتهما، لكن لهجتهما كانت شديدة وصارمة ولم يتركا لها خيارا آخر بل اقتاداها مرغمة إلى سيارتهما كأن الأمر أشبه بتوقيف أو اعتقال. أخذوها لبناية تاريخية كبيرة يحرسها عدد من أفراد الجيش المسلحين، دخلوا من الباب الخلفي ثم ترجلوا جميعا من السيارة لبضعة أمتار إلى أن وصلوا لدرج يؤدي إلى الطابق الأول وطلبا منها صعوده لوحدها وأن تسير لآخر الردهة وتنتظر هناك حتى يوافيها أحدهم. لم تكن تعرف ما الذي يحصل معها، انتابتها الشكوك وأخذتها الأفكار يمنة ويسرة. اعتقدت لوهلة أن الفوهرر يريد معاقبتها لأنها رفضت مرافقة صديقته إيفا وتركتها تسافر لوحدها إلى بروسيا الشرقية، ثم ما فتئت أن تذكرت هيرمان والأسبوع الذي قضياه معا في دريسدن وفكّرت بأن يكون أحدهم قد اكتشف أمرهما ووشى بهما إلى زوجها. في غمرة غرقها في أفكارها انفتح الباب وخرج إليها ضابط من الغيستابو لحسن الحظ أنها كانت تعرفه جيدا، كان اسمه العميد تيللر ويشغل منصب المساعد الأول لزوجها. شكرت السماء وأمسكت على يديه بقوة وهي ترتعش. سألته ما الذي يجري معها وهل هي موقوفة أم ماذا؟ أحس تيللر بخوفها واضطرابها الشديد فطمأنها مربّتًا على يديها وطلب منها مرافقته إلى مكتبه ثم دعا لها بمشروب ساخن وطلب منها أن تهدأ قليلا. كانت ملامحه صارمة جدا على غير العادة لكنه كان لبقا معها ويعاملها باحترام شديد عكس الضابطين اللذان اقتاداها إليه عنوة. سألها عن آخر مرة رأت فيها زوجها الكولونيل كولن فالتر كولن، فاستغربت السؤال وأجابت على مضض قائلة أنه

ربما يكون قد مضى شهر أو أقل قليلا منذ آخر لقاء بينهما. استفسرته بدورها عن سبب هذا السؤال الذي يبدو لها خاصا جدا فأجابها بتحسّر: "يؤسفني فراون كولن أن أخبرك أن زوجك قد بذل دمائه في عملية اغتيال كانت تستهدف الفوهرر بالأساس وقد قضى معه أيضا ضابطين كبيرين في الـ"SS" ومجموعة من الحراس، ماتوا جميعا بسبب تفجير انتحاري نفذه ضابط في الفيرماخت برتبة كولونيل اسمه أوستر فريديرتش في وكر الذئب". لم تتمالك أورسولا نفسها ودخلت في نوبة بكاء هي نفسها لم تكن تعرف لها سببا، فالعلاقة الروحية والعاطفية بينها وبين زوجها انقطعت منذ زمن بعيد ولم يعد يجمعهما شيء بل وكانت عازمة على الطلاق. شَعَر تيللر بنوع من الأسى تجاهها وعبَّر لها عن تعازيه وتضامنه معها وناولها منديله لتمسح دموعها ثم ضغط على زر الجرس. لم تمض سوى دقائق قليلة حتى التحق به ضابطان آخران دخلا دون استئذان عبَّرا لها بدورهما عن تعازيهما دون أن يُعرّفا بنفسيهما، أخبرها أحدهم أنه هنا ليوجه لها بعض الأسئلة وعليها أن تمده بإجاباتها بكل دقة وصراحة. استغربت أورسولا للأمر ونظرت إلى تيللر بنظرات هي أقرب إلى الاستعطاف، فهو يعرف أن الظرف ربما غير مناسب، لكن تيللر لم يُعلّق على الأمر وبدا كأنه موافق، حينها توجهت أورسولا إلى الضابط مستهجنة "أي نوع من الأسئلة هاته التي لا يمكن أن تنتظر؟" فرد عليها بسؤال متجاهلا تماما استنكارها: "هل كنتِ سيدتي على علم بالمكان الذي يتواجد به وكر الذئب؟ وهل أطلعك زوجك بشيء عن ذلك؟" بدا لها السؤال وكأنه ينم عن شكوك، فتدخل تيللر موضحا لها أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد استفسار روتيني تقوم به الأجهزة الأمنية في مثل هذه الحالات حتى مع كبار الجنرالات أنفسهم. حينها أجابت بالنفي موضحة أن زوجها لم يكن يطلعها أبدا على الأمور التي تخص عمله، وأنها لا تعلم لحد الساعة بمكان تواجد وكر الذئب بالتحديد لكنها تعلم أنه في روستنبرغ. نظر الضابط إلى زميله ثم استرسل في سؤالها وكيف عرفت أنه في روستنبرغ ومنذ متى علمت بذلك؟ فأجابته

أنها لم تعلم بذلك سوى قبل بضعة أسابيع وتحديدا قبل خروج زوجها آخر مرة حيث طلب منها بناء على أوامر القائد الأعلى نفسه أن ترافق ضيفته يوم الاثنين 24 كانون الثاني/ يناير إلى هناك وأن ثمة رتلا عسكريا سيؤمن طريقهم. عاود الضابط سؤالها بنبرة أكثر صرامة قائلا " تلقى الضابط المناوب في مكتب زوجك اتصالا هاتفيا منك بعد منتصف ليلة الخميس أي ثلاثة أيام فقط قبل موعد سفرك تخبرينه فيه بأنك لن تلتحقي بالرتل كما كان متفقا وأنك ألغيت رحلتك. ترى ما كان السبب؟" فردت عليه بغضب "ويبدو أن من نقل إليكم المعلومة لم يخبركم بما قلته كاملا يا حضرة الضابط. لقد ذكرت له في حينه أن حالة أختي الصحية ساءت كثيرا وأن علي أن أكون إلى جانبها فهي أختي الوحيدة وأنا كل من تبقى لها من عائلتها". حاول ضابط الغيستابو أن يتدخل لكنها قاطعته مرة أخرى بعد أن وقفت وحملت حقيبة يدها وخاطبته بحدة "هل تستجوبني يا حضرة الضابط أم أنك تتهمني بشيء؟" فأجابها بعدما غيَّر من نبرته أن ضباط الـ "SS" التقطوا إشارات لاسلكية تم بثها من دريسدن تحديدا فجر يوم العملية التي راح ضحيتها زوجها وأن تلك الإشارات تقول إنهم سيقتلون الفوهرر عند الظهر لذلك عليها أن تتعاون معهم إذا كانت تعرف شيئا يمكن أن يساعدهم، كما أن التحقيق يطال كل من له صلة أو معرفة بمخبأ الفوهرر.

حاولت أورسولا أن تحافظ على تماسكها رغم أن ما سمعته جعل قلبها يخفق بقوة من شدة الرعب، وبدت عليها ملامح الحيرة والاضطراب الأمر الذي دفع تيللر للتدخل مرة أخرى ليخبرها أن التحقيق في هذا الأمر يقوم به ضباط "الشوتزشتافل" وأنهم كانوا سيقومون باستجوابها في مقراتهم بشكل رسمي لكن تقديرا لظروفها الخاصة ومكانة زوجها طلب منهم أن يكون التحقيق معها في مكتبه وبحضوره هو شخصيا وتحت إشرافه، وزاد بالقول أنهم جميعا متأكدين من وفائها وإخلاصها لألمانيا وللفوهرر لكن هذا لا ينفي أنه من الوارد جدا أن يحدث خطأ ما ولو بشكل غير مقصود. أيقنت أورسولا أنها باتت تواجه وضعا صعبا وأنها في ورطة لا تدري كيف ستخرج منها، فجأة تذكرت

شيئا مُهمًّا يمكن أن يخفف الضغط عليها ويُبعد عنها الشكوك، فسألت تيللر والضابطين الآخرين إن كانوا يعرفون بأمر العلاقة التي كانت تجمع زوجها بعشيقته النمساوية، وأنه كان يقضي معها أسبوعا بمدينة بادن قبل أيام قليلة فقط من توصله باستدعاء من القيادة يطلبون حضوره إليهم على وجه السرعة، وسألتهم "هل يا ترى ستحققون معها هي أيضا؟". ساد جو من الصمت ولم يُبدِ أحد أي ردة فعل بل قام الضابط الذي كان يستجوبها بإخراج علبة سجائره وأشعل واحدة ثم توجه نحو الشرفة ووقف يدخنها في صمت.

كان تيللر يجلس على مكتبه ملتزما الصوت وينظر إلى أورسولا بشكل غريب. كان يتفحصها مليّا حتى جعلها ترتبك وزاد من خوفها وخُيِّل إليها أنه يسمع خفقان قلبها، لكن ذلك لم يدم طويلا إذ سرعان ما عاد الضابط نفسه الذي كان يقف أمام الشرفة وانحنى عليها كأنه يريد أن يهمس لها بشيء، غير أن كل ما فعله أنه أطفأ سيجارته بمطفأة السجائر الموضوعة على المكتب بجانبها. كانت ملامحه قاسية جدا لذلك كان يكفي أن ينظر إليها كي يجعلها تموت من الرعب، ثم قال لها بنبرة حازمة: "هل تدركين جيدا أين أنت الآن؟ وما نحن بصدده؟ لا مجال هنا سيدتي لمحاولة الاختلاق أو الإدلاء بمعلومات كاذبة، صدقيني ذلك لن يفيد في شيء، لا تَدَعي هذا يغيب عن بالك مرة أخرى"، أجابته أنها لا تكذب ولا تختلق وأنه بإمكانه أن يتأكد من صحة كلامها، لكنَّه فاجأها بالقول أنهم يعلمون حتما بأمر عشيقة زوجها النمساوية لكنهم يعلمون أيضا أنه قطع كل صلاته بها قبل خمسة أشهر وأنه لم يزر بادن أبدا ولم يرها وأن زوجها لم يغادر مكتبه في روستنبرغ منذ أول يوم التحق به لذلك فقصة سفره ولقاءه بعشيقته التي تخبرهم بها الآن هي محض افتراء بائس لن يصدقه أحد لأنهم وبكل بساطة يعلمون أنها ليست حقيقية.

كان هذا الرد صادما لأورسولا وكان حاسما أيضا لتلك الشكوك التي راودتها بخصوص هيرمان، لقد أدركت أنه خدعها ونجح في إيهامها بأن زوجها كذب عليها بشأن سفره إلى روستنبرغ

وأنه يخونها. اختلطت عليها الأمور فجأة وشعرت بصداع شديد يهرس رأسها، تلعثمت في أجوبتها وظهر عليها الارتباك فراحت تطلق عبارات غير مترابطة ولا تعني شيئا، لم تكن أجوبتها تحمل أي إضافات بل عقّدت أمرها خصوصا أمام نظرات الضباط لها قبل أن تلوذ بالصمت واضعة رأسها بين يديها وهي لا تدري أي مصير ينتظرها.
خمس ساعات مرت حتى الآن ولا تزال أورسولا ضيفة لدى شرطة الدولة السرية، خمس ساعات بكاملها كانت كافية لتعطيها فكرة مصغرة عن الجحيم في أبسط تجلياته. يقول "وليام شكسبير" في إحدى مسرحياته "يموت الجبناء مرات عديدة قبل أن يأتي أجلهم أما الشجعان فيذوقون الموت مرة واحدة"، لكن أورسولا المسكينة رغم شجاعتها فإنها تجرعت الموت عدة مرات خلال هذا التحقيق. لقد كان أسلوب الضابط يتسم بكثير من القسوة ولم يكن يُظهر أي نوع من التعاطف أو التضامن معها وقد جمع الشدة والخبث في آن واحد. أمطرها بعشرات الأسئلة أجبرها على أن تجيب عليها كلها وبتفصيل ممل حتى تلك المتعلقة بأكثر تفاصيل حياتها حميمية، أما زميله فقد كان يدون كل حرف يخرج على لسانها دون أن ينبس بكلمة. وحده تيللر كان يتدخل أحيانا ليساعدها ويشرح لها الأسئلة المستعصية عليها، لقد شكرت الرب لأنه هنا فحضوره كان فعلا مبعث أمان لها في أشد لحظات حياتها العصيبة وقد كان يتدخل كلما اشتد بها الحال ويأمر لها بأكواب الماء ويناولها مناديل الورق لتمسح دموعها. توقف الضابط للحظة عن طرح الأسئلة وأطفأ سيجارته وحمل طفاية السجائر بنفسه ليفرغها في سلة القمامة بعدما امتلأت عن آخرها بأعقاب السجائر، لقد كان الوحيد الذي يدخن في تلك الغرفة، لكن كمية الدخان التي أحرقتها رئتيه تكفي لأن تطلي جدران الغرفة كاملة باللون الأسود. طرق أحدهم الباب فأذِن له تيللر بالدخول، كان ذلك أحد رجالات الضابط الذي يستجوبها عرفته بعدما دخل وأدى أمامه تحية عسكرية ثم سلّمه ظرفا مغلقا وانصرف. فتح الضابط الظرف وأخرج منه ورقة قرأها في صمت دون أن تُعبّر ملامحه عن

أي شيء ثم طواها ووضعها في جيب سترته ولم ينبس ببنت شفة. كان الترقب سيد الموقف والصمت الرهيب يخيم على المكان، أما أورسولا فقد كانت تحاول أن تحافظ على ما تبقى من كبريائها الذي مرغته أسئلة الضابط في الوحل. استجمعت قواها وأخذت نفسا عميقا وأطرقت شاردة تفكر في كل ما يحصل. يجب القول أنها وبرغم الضغط النفسي الرهيب الذي مورس عليها وعشرات الأسئلة المحرجة التي طرحت عليها إلا أنها استطاعت أن تتماسك حتى الآن ولم تبُح لهم بشيء. فجأة جاءها صوت الضابط مرّة أخرى ليقطع شرودها قائلا "لقد أخبرتِنا في بداية كلامك أن زوجك قضى أسبوعا مع صديقته النمساوية في بادن قبل أن يتم استدعاؤه من طرف القيادة إلى روستنبرغ. إذا افترضنا أنه لم يكن في نيتك اختلاق خبر زائف كهذا فلا شك أن هناك من تلاعب بك وأوهمك بهذا الزَّعم، فمن تراه يكون؟". أدركت أورسولا أن إجابتها بصدق وأمانة على هذا السؤال بالذات كفيلة بأن توجّه أصابع الشك والإتهام مباشرة نحو هيرمان، وستضعها معه في سلة واحدة وستواجه حينئذ اتهاما صريحا بالتآمر- كما سيتم اعتبارها شريكة في جريمة الخيانة العظمى أو على الأقل مذنبة لأنها أفشت سرا عسكريا ونهايتها لن تختلف كثيرا عن نهايته سوى في طريقة التنفيذ حيث أن هيرمان سيتم قتله رميا بالرصاص بينما ستموت هي شنقا على مقصلة الإعدام. لم يكن أمامها أي حل آخر سوى نفي كل تكهنات الضابط وتخميناته مؤكدة أن كلامها لم يكن مردُّه رغبتها في الاختلاق ولكنه ربما اعتقاد خاطئ أوحى لها به حدسها الأنثوي والسبب في ذلك أنها اكتشفت عدة مرات أن غياب زوجها عن البيت لم يكن بدافع انشغاله في مهمات رسمية وإنما ليستمتع بخيانتها مع عشيقاته الكثيرات وليست النمساوية كلارا آخرهن. لم يُعقِّب الضابط على كلام أورسولا رغم أن إجابتها لم تكن من وجهة نظره كافية ولا منطقية بل ولم تُجب تماما عن جوهر السؤال لكنه تجاهل ذلك ثم قام وتوجه نحو المشجب واستل معطفه ليلبسه. لفَّ وشاحه حول رقبته ونظر إليها قائلا لدي سؤال أخير فراون كولن أتمنى أن أجد له جوابا

مقنعا لديك؟ أومأت له برأسها وقالت تفضل. أدخل أصابع يده اليسرى في قفازه الصوفي ثم قال "وردني أنَّك غادرت بيتك في برلين في المدة الأخيرة وذهبت إلى وجهة غير معلومة، وأنك غبت مدة خمسة أيام كاملة ولم تأتِ إلى هامبورغ من أجل زيارة أختك حسب اتفاقك مع الكولونيل كولن، فهل لك أن تخبرينا أين قضيت تلك الأيام الخمسة ومن كان برفقتك؟" كان سؤال الضابط هذا مباشرا ومفاجئا في نفس الآن وجعل أورسولا تدخل في نوبة تَعرُّق شديد كأنها تحت درجة حرارة تعادل الخمسين مئوية وظهر عليها الارتباك مجددا بل وأكثر من ذي قبل ولم تستطع أن تنبس بكلمة. لاحظ الضابط اضطرابها ولم يكن بالقطع صعبا عليه أن يفهم أنها تخفي شيئا لكنه في نفس الوقت لم يُظهر إلحاحا في معرفة الجواب كما كان يفعل في المرات السابقة، بل لم ينتظر جوابها أصلا حيث وضع يده اليمنى في معطفه وأمر مساعده أن يغلق المحضر ثم اتجه نحو الباب، فتحه وهمَّ بالخروج راسما على شفتيه ابتسامة هازئة، لكنه وقبل أن يضع رجله الأولى خارجا التفت إلى العميد تيللرر وقال له: "يبدو أيها العميد أن توقعاتك لم تكن في محلِّها، لكن على كل حال سأترك لك فرصة أخيرة لتتدبر الأمر بنفسك وترى إن كان لدى السيدة ما تخبرك به، أما من جهتي فقد باتت الأمور واضحة جدا ولا تحتمل أي شك" ثم ودّعه وخرج.

على الجانب الآخر وبعد فشل عمليتهما، كان كل من هيرمان والضابط الطيار هيبير فون قد قاما بالتوقف عن كل أشكال النشاط السري وقطعا جميع اتصالاتهما ببعض وبالخارج أيضا كما تخلصا من أي شيء يمكن أن يثير الشكوك حولهما كجهاز الارسال اللاسلكي والشفرات السرية واستمرا في عملهما الرسمي بشكل روتيني جدا خصوصا وأنَّ الأخبار التي وردت إليهم تفيد بمقتل الكولونيل أوستر قبل استجوابه، وطالما أن الضابط هيبير فون لم يتحرك بطائرته بعد عملية الاغتيال، فإن الشكوك والأنظار ظلت بعيدة عنهما وهذه ليست أول مرة يتعرض الفوهرر لمحاولة الاغتيال ولن تكون الأخيرة على كل حال. أما في هامبورغ فقد انتهى التحقيق أخيرا مع أورسولا

وأصرَّ العميد تيللر على مرافقتها بنفسه إلى حديقة البناية، كان يريد أن يطمئِن عليها ويأمر حارسه الخاص بنقلها في سيارة الخدمة إلى بيتها. شكرته بدورها على وقوفه بجانبها في تلك اللحظات العصيبة وأخبرته أنها مدركة تماما كم هي مدينة له. فلولا إصراره على أن يحضر الاستجواب بنفسه لكانت أحوالها قد ساءت كثيرا ولا تعلم ما الذي كان سيحل بها. لكن العميد تيللر لم يبد اهتماما بامتنانها ذلك ولم يحفل بثنائها عليه وأخبرها بصراحة مفزعة أنها لم تُبلِ جيدا أثناء التحقيق وأن إجاباتها لم تكن أبدا مقنعة بل كانت في الغالب غامضة ومتضاربة، ونصحها أن تعود للبيت وتأخذ قسطا من الراحة وألاَّ تتردد في الاتصال به إذا كان لديها ما تخبره به فهو لا يعرف ما الذي يخفيه ضابط الـ "ss" وربما إن هي تأخرت كثيرا فقد لا يستطيع مساعدتها إذا رغبوا بتحويلها إلى التحقيق العسكري من أجل تعميق البحث معها والتحقيق في قضية تخابر.

طريق العودة الشاق

ركبت أورسولا السيارة مع السائق وسار بها في طرقات هامبورغ اخترق دروبها وشوارعها وأحياءها، بناياتها التاريخية ومآثرها وجسورها، لكنها كانت غائبة عن كل ذلك، فاللحظات العصيبة التي مرت بها طيلة اليوم جعلت شريط حياتها يمر أمامها كأنها تحتضر. لقد أضحت منذ اليوم أرملة بعد مقتل زوجها والحزن يأكل قلبها واختلطت في أعماقها مشاعر الأسى والحزن بمشاعر الندم. بالقطع لم تكن تحبُّه لكنه كان زوجها على أية حال. فكّرت أيضا فيما يمكن أن يكون قد فعله هيرمان، ترى هل كان له يد فيما حصل؟ هل حقا كان يخدعها طيلة الوقت؟ هل كان يعبث بمشاعرها؟ مستحيل، لقد منحته قلبها وجسدها وروحها أيضا لكنه جعلها تبكي وتتجرع الموت والخوف. كانت دموعها تنهمر دون توقف وهي تتذكر كل تلك التفاصيل التي جمعتهما، تلك القبل الشبقية والأحضان الدافئة وكلمات الحب التي أمطر بها مسامعها، خوفه عليها تأثره لفراقها، ليلة الاحتفال، ولكن زوجها كان يقفز من موته ليبرز أمامها، لم يصرخ في وجهها هذه المرة كعادته ولم يُشهر مسدسه ولم يهددها بالتصفية كما كان يفعل كلَّما تمردت عليه، لكنه كان يقتلع تلك الورود المسمومة التي زرعها هيرمان في جسدها والأشواك تدمي يديه. خُيّل إليها أن هيرمان اقتلع كبد زوجها وعينيه وقلبه وطبخهم مع الفطر والبطاطا المهروسة وقدمهم لها على طبق مع زجاجة فودكا فشاركته في أكلها وهي في قمة النشوة والفرح. كان المنظر مقززا جدا لدرجة جعلها ترغب في إرجاع كل ما في معدتها. لازالت غير مصدقة لكل ما جرى فقلبها يُكذِّب كل ما سمعه. لا تريد تصديق تلك الفكرة الرهيبة أن حبيبها هيرمان استغلها أبشع استغلال وجعل منها مُغفّلة وخانها وخان وطنه قبلها وقدّم عشقهما قربانا للآيديولوجيا. كان على أورسولا أن تفهم مُبكّرا أن الإيديولوجيا تُجيز للفرد ارتكاب الشرّ بِنية فعل الخير، فالقتل الإيديولوجي لا يعد شرًّا بل وسيلة للنضال ضد الشر فهو خير إذن. هتلر نفسه

دفع ملايين البشر من شعبه وغيره من شعوب العالم إلى الموت بنِيَّة بناء وطن قوي وكبير للألمان وإعادة كتابة تاريخ البشر وتنظيم حياتهم وعقائدهم ونظامهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وكانت حجته في ذلك أنّه يُريد تصفية العرق البشري من كل العيوب التي تشوبه، فقتل اليهود والمثليين والمعوقين ولم يتورع عن استعباد شعوب بكاملها والقيام بجرائم التطهير العرقي والميز العنصري دون أن يعترض عليه أحد من الألمان بل إن فئات عريضة من الشعب كانت تبارك أفعاله وتفتخر بها لا لشيء سوى لأنه غلّف كل ذلك الشر بغلاف الخير.

وصلت أورسولا أخيرا إلى البيت، كان الإجهاد والتعب قد أخذا مأخذهما منها فلم ترد على استفسارات أختها المريضة. كل ما فعلته أنها طمأنتها وأخبرتها أن زوجها قد مات في تفجير انتحاري وأن عليها العودة غدا إلى بيتها في العاصمة برلين لكي تنتهي من بعض الأمور العالقة، ثم تركتها وصعدت لغرفتها. أقفلت على نفسها الباب وارتمت فوق فراشها مطلقة العنان لشلال الدموع الهادر المكتوم بداخلها كي يتحرر من قيود أحداقها. أمضت ليلتها تذرف الدمع والدم وتحيك الأسئلة وتخيط لها إجابات واسعة وفضفاضة لا تستر مكامن الخوف في روحها. سؤال واحد هو أكثر ما كان يؤرقها ويحرك الخنجر المغروز في قلبها "هل كان حبيبها هيرمان فعلا وراء كل ما حدث؟ وهل ساعدته هي من حيث لا تدري في تخطيطه؟" كانت هذه الفرضيات المرعبة تنتفض أمامها كوحش هلامي أسود اللون ولم تكن تجرؤ مجرد التفكير في إجابات منطقية لها. فالمنطق والعقل يكونان قاسيين أحيانا بالقدر الذي يكفي لقتل القلب، لكن لا مفر من ذلك. فالإنسان كما يقول برتراند راسل* يشعر بالهدوء في مواقف الخوف عندما يتخيل أسوء ما يمكن

***برتراند راسل:** (1872-1970) فيلسوف وعالم رياضيات بريطاني له كتب ومؤلفات عديدة، وحائز على جائزة نوبل للآداب سنة 1950.

أن يحدث ويُقنع نفسه بأن حياته لن تنتهي. وأورسولا قد أخذت ما يكفي من جرعات الخوف والألم لتتحرر من عبئهما على روحها لقد خافت كثيرا وجزعت كثيرا وعاشت الموت وتجرعت سكراته وقد دقت الآن ساعة الحقيقة. لم يكن من السهل عليها التصديق بخيانة هيرمان ليس لأنه منزه عن ذلك بالعكس تماما، فهي كانت مؤمنة أشد الإيمان أن الخيانة تعني الرجل، ولكن لأنها لم تكن ترغب أن تكون ضحية مغفلة وفي نفس الآن شريكة في مؤامرة لصالح العدو. ذلك أن الخسائر عظيمة جدا، وقد دفع زوجها حياته ثمنا لهذه الخيانة ومعه عدد من الضحايا الآخرين، ناهيك عن كون أقوى جيش في العالم قد ذاق الطعم المر للهزيمة ليس لضعف في عزيمة رجاله على الميدان ولا لاختلال ميزان القوة العسكرية، ولكن لأن حرب الجواسيس القذرة التي كانت تستعر في الخفاء كانت لها الكلمة الأخيرة. لقد باتت مقتنعة أن السوفييت لا يكسبون حربهم في الشرق لأنهم أقوى، ولكن لأن الكثيرين من الألمان ساعدوهم بخياناتهم للرايخ وهي واحدة من هؤلاء الخونة ولا يهم إن كانت خيانتها بإرادتها أم لا، فما يهم فعلا هي النتائج وهي كارثية بالحجم الذي يجعل خيانتها ترقى بلا أدنى تبرير إلى جريمة عظمى. كل هذا كان ثقيلا جدا ومرعبا، وكان من الصعب عليها قبوله، لذلك تدخلت دفاعاتها النفسية من أجل قمع تلك الأفكار المؤلمة ومحاولة طمسها بعيدا عن وعيها رغم أن قسوة الواقع وحجم الأضرار جعلاها تظهر من جديد وتطفو علي السطح وكان ذلك يضعها أمام ضميرها.

أعظم الخسارات

دقت الثامنة صباحا كانت أورسولا قد انتهت من تجهيز نفسها للسفر لكن قبل ذلك كان عليها أن ترتب لقاءً خاصا مع العميد تيللر. طلبته بالهاتف وأخبرته عن رغبتها في رؤيته قبل عودتها المرتقبة إلى برلين، ويبدو أن العميد تيللر كان هو الآخر ينتظر مكالمتها بل وكان يراهن عليها ولم تخذله. اقترح عليها أن ترافقه إلى العاصمة وتسافر معه بسيارته، فهو أيضا ملزم بالعودة فورا إلى برلين حيث ينتظره هناك عمل كثير، وافقت على الفور بل ورحبت بعرضه، فطلب منها أن تنتظره في بيت أختها حتى يمر بنفسه ليأخذها معه بعد ساعة.
لم تكن ظروف الحرب تسمح للسلطات الألمانية أن تقيم جنازة عسكرية تليق بضحايا عملية "فكي الملقاط"، لذلك كانت أوامر القيادة النازية تقضي بدفن جثامين الضباط والجنود في مكان يقع وسط الغابة وتحديدا بمحاذاة وكر الذئب في ضاحية روستنبرغ مع إقامة شواهد على قبورهم تشهد ببطولتهم وكتابة أسمائهم على نصب الجندي المجهول وسط أكبر ساحات برلين. لكن وبالمقابل فقد قررت إدارة الغيستابو إقامة حفل تأبين صغير بمقرها تحضره زوجات الضباط الذين قضوا في العملية مع أبنائهم ليتسلموا أوسمة الاستحقاق ونياشين الحرب وبزاتهم العسكرية التي استشهدوا من أجلها. كان ذلك اللقاء مبرمجا في مساء يوم الأحد الأول من شهر كانون الثاني/ يناير، وفي مناسبات كهذه تقوم موظفات الخدمة الاجتماعية بالتحضيرات اللازمة لذلك بالتنسيق مع أقارب الضحايا. لم يكن اختيار هيرمان ليكون من بين المشرفين على مراسيم التأبين تلك بالاعتباطي فهو كان أحد المساعدين للكولونيل كولن فالتر كولن وبالتالي فقد تم تكليفه بزيارة أرملته وتقديم العزاء لها باسم الجهاز أولا، ثم توجيه الدعوة لها رسميا من أجل حضور المراسيم. لم يكن هيرمان يشعر بالارتياح لملاقاة أورسولا فهو حتى الآن ليس متأكدا من سلامة موقفه تجاهها وإن كان قد

اطمأن أن اسمه ليس موضع شك لدى الأجهزة الأمنية سواء الغيستابو أو الشوتزشتافل. لكنه لا يملك أمام قرار القيادة سوى الامتثال وتنفيذ المهمة وإن اقتضى ذلك مواجهة أورسولا فلا مناص من المضي قدما في مغامرته تلك إلى آخرها. فكر أن يتصل بها بالهاتف أولا لكنه تراجع مفضلا أن يترك لنفسه فرصة تقييم موقفها عندما يلتقي بها بشكل مباشر، ومن أجل تدبير ذلك طلب من موظفة الخدمة الاجتماعية المكلفة بالمراسيم مرافقته إلى بيت الكولونيل لكن قبل ذلك عليها أخذ موعد مسبق مع أرملته فراون كولن. لم تتأخر الموظفة كثيرا وسرعان ما عادت إليه وأخبرته أن السيدة أورسولا فالتر كولن قد عادت لتوها من هامبورغ، وأنها بانتظارهما عند تمام الخامسة مساءً.
في هذه الأثناء كانت الحرب تشهد ضراوة لا مثيل لها على الأرض وكانت القوات السوفيتية تتقدم بسرعة على الجبهات الشرقية خصوصا بعد تحرير كييف كلّيا واستعادة السيطرة على غالبية الأراضي الأوكرانية، ودخول أرتال الألوية الحمراء إلى رومانيا، كما تمكّنت قوات الحلفاء أيضا (أمريكا وبريطانيا وفرنسا الحرة) من إحداث اختراق كبير على الجبهة الجنوبية بعد احتلال صقلية والسواحل الإيطالية ومدنها الجنوبية بل وبدؤوا يستعدون لفتح جبهة جديدة في الغرب لتحرير فرنسا عبر إنزالات "النورماندي"، الأمر الذي جعل الجو العام بألمانيا مشحونا جدا وبالغ الحساسية.
توجهت عقارب الساعة بخطى حثيثة نحو الخامسة عصرا، سمعت أورسولا المترقبة جرس الباب يدق، فدق معه قلبها، فتحت فإذا به هيرمان ومعه مسئولة الخدمة الاجتماعية بالغيستابو. التصقت عيناها بعينيه وعندما صافحته شعرت أنها تسبح في بحر كثيف من الدخان الأبيض لدرجة لم تنتبه معها أنها تركتهما واقفين على الباب ما حدا بموظفة الخدمة الاجتماعية أن تبادرها قائلة "أتمنى ألا نكون قد أتينا في وقت غير مناسب فراون كولن؟" انتبهت أورسولا وأجابتها بابتسامة

مقتضبة قائلة "آه، لا أبدا فراون، لقد جئتما في موعدكما المحدد تماما، اعذراني فأنا متوترة بعض الشيء تفضلا".
دخلت الموظفة وتبعها هيرمان، طلبت منهما أن يجلسا في البهو وسألتهما إن كانا يريدان كأسا من الشاي في هذا البرد القارس، لكن هيرمان رفض أن تشغل نفسها بخدمتهما قائلا "لا داعي لذلك فراون كولن لقد جئنا اليوم فراون هيلدا وأنا لنقدم لك باسمنا واسم كل العاملين في جهاز شرطة الدولة السرية تعازينا الحارة وتضامننا العميق معك. لقد كان حادث وفاة الكولونيل كولن فالتر كولن فاجعة كبرى وخسارة فادحة لنا وللرايخ العظيم كله". لم تكن أورسولا بحاجة لتُعقِّب على كلامه واكتفت بهز رأسها فيما ظلت عيناها مسمَّرتين عليه. كانت تُحدّق فيه بشكل غريب ولم تكن تنصت لما قاله. أربكته نظراتها وانزعج من قسماتها، فلم يسبق له أن رآها بهذا الشكل. كان وجهها شاحبا والهالات السوداء تحيط بعينيها وصوتها المتهدج لا يكاد يُسمع، كما أن ملابس الحداد التي كانت متشحة بها أضفت عليها مسحة من الكآبة القاتلة. لم تدم لحظات الصمت كثيرا حتى قطعتها زميلته حين أخرجت ظرفا به دعوة لها وسلمته لها قائلة "نتمنى حضورك يوم الأحد المقبل لمراسيم التأبين الرسمية وبدوري أجدد لك تعازيَّ الحارة وسأكون في خدمتك متى احتجت لأية مساعدة". شكرتها أورسولا وأكدت لها أن حضورها لا نقاش فيه، لأنها لا يمكن أن تتغيب عن مراسيم تأبين الكولونيل كولن فالتر كولن وكل من قضوا معه ليس باعتباره زوجها ولكن باعتباره خادما مخلصا ووفيا للرايخ العظيم. أكدت الموظفة كلامها قائلة "لا شك في ذلك فراون، اسمحي لنا إذن أن نستأذن، فلا شك أنك بحاجة ماسة للراحة وموعدنا يوم الأحد المقبل". أومأت لها أورسولا برأسها ورافقتهما إلى الباب ثم صافحتها مودعة. مد هيرمان يده ليودعها هو أيضا لكنها نظرت إليه قائلة: "هل يستطيع هير هيرمان البقاء قليلا فأنا أحتاجه في موضوع مهم يتعلق بالكولونيل؟" ارتبك هيرمان ونظر إلى

زميلته وهو يتمتم بكلمات غير ذات معنى محاولا التملص من دعوة أورسولا، لكن الموظفة لم تبدِ أي مانع وقالت له "يمكنك حضرة الضابط تلبية دعوة السيدة دون أن تقلق بشأني، فأنا في كل الأحوال سأعود إلى البيت فقد انتهى دوامي قبل ساعة" ثم استأذنت منهما وانصرفت. أغلقت أورسولا الباب خلفها وكانت تعلم أنها تفتح بابا آخر لصراع من نوع آخر مع نفسها أولا ثم مع حبيبها هيرمان، أما هو فقد كان مرتابا جدا. تراجع خطوات إلى الوراء فيما بقيت هي تراوح مكانها ملتصقة بظهرها مع الباب وتنظر إليه. سألها إن كانت بخير وإن كان كل شيء على ما يرام؟ فأجابته "ماذا برأيك أنت؟ هل ينبغي لي بعد أن صرت أرملة وحيدة وتعيسة أن أكون على ما يرام؟" كانت حشرجة الدموع تكتم أنفاسها وتعيق صوتها. أحس من كلامها أن لديه فرصة ذهبية لاستمالتها وتليين مشاعرها، فقال: "لا أظنك ستكونين وحيدة وتعيسة طالما لا زلتُ أنا على قيد الحياة؟" نظرت إليه مستغربة فاسترسل في كلامه قائلا "أعرف أن الوقت غير مناسب وربما ليس من اللائق أن أقول هذا الآن، لكننا نحب بعضنا أليس كذلك؟" كان الوضع أشبه بمعترك حرب فرضتها عليه وعليه خوضها ولا يملك سلاحا أمامها سوى لسانه وقلبها لذلك عمد إلى الهروب إلى الأمام بإثارة موضوع حبهما وعلاقتهما في هذا الجو المشحون، فالنقر على وتر العاطفة هو وسيلته الوحيدة لكسر أي نوايا عدوانية لها تجاهه أو على الأقل التخفيف من حدتها ولا يهمه بعد ذلك أن ينتصر في المعركة لأن مبتغاه الوحيد هو الخروج منها سالما. كان يطبّق تلك الحكمة الصينية المشهورة التي قرأ عنها ذات مرة والتي تقول " أن الانتصار في المعارك ليس هو النجاح التام وإنما النجاح التام هو أن تكسر مقاومة الخصم بدون قتال"، ويبدو أن خطته قد بدأت تؤتي ثمارها، ذلك أنها لم تغير من حدتها ولا من قسمات وجهها ولكنها ارتمت في أحضانه وألقت بنفسها بين يديه وهي تغرق في دموعها. كانت تصرخ من فرط تأثرها وتشتمه بكلمات نابية لكنها كانت بحاجة إلى حضنه وإلى جرعات زائدة من الحنان ليطيب بها الجراح الغائرة التي كانت تدمي قلبها

بسببه. ظلت ملتصقة به وكأنه حضنها الأخير، اعتبر هيرمان ذلك دليلا كافيا على أن حبه مازال يملأ قلبها وأنه كفيل بأن يكبح أي نوايا انتقامية قد تضمرها له. احتضنها هو أيضا وطبع قبلة على رأسها ثم حاول أن يبعدها عنه ليتطلّع إلى وجهها لكنها رفضت وظلت منزوية في أحضانه لا تتكلم. كان يسمع فقط صوت أنفاسها المتهدّجة، لم يدرك أن رائحة جسده هي التي كانت تخنقها هذه المرة كأنها لم تعد تثيرها كما في السابق. فجأة رفعت رأسها وقطعت الصمت قائلة "خذني بعيدا عن هنا، أريد أن أبتعد ليس عن برلين فقط وإنما عن ألمانيا كلها، هيا لنذهب إلى نيويورك أو واشنطن أو حتى سيدني في استراليا...."، قاطعها في ذعر وقال مستنكرا "أورسولا حبيبتي ما الذي تقولينه؟ هذا جنون، إنّ مجرد التفكير في الخروج من ألمانيا قبل أن تنتهي الحرب يعتبر جريمة وخيانة عظمى نتيجتها الحتمية هي الموت فما بالك إذا كان هذا الخروج إلى دولة معادية؟" أجابته "ولم لا؟ وقد سمعت أن عددا كبيرا من قادة الجيش أنفسهم وبينهم أعضاء بارزين في الحزب النازي أيضا غادروا إلى بريطانيا وأمريكا". شرح لها أن من تمكنوا من الخروج فهم القادة الذين يمتلكون فرصة الهرب بفضل ما توفره لهم رتبهم وسلطاتهم من عبور آمن لخطوط النار، ثم سألها "لكن لماذا تفكرين في الخروج وفي هذه اللحظة بالذات؟" سكتت قليلا ثم نظرت إلى عينيه قبل أن تدير له ظهرها وقالت "كيف تريدني أن أبقى هنا وقد كنت شريكتك في قتله؟ إن صورته تلاحقني أينما ذهبت ولن احتمل هذا" كانت كلماتها رصينة وواثقة جعلته يدخل في نوبة شك وحيرة ممزوجة بالارتباك، ثم ما لبث أن تدارك أمره وقال منتفضا "تقصدين زوجك، وهل أنا من قتله؟ ما هذا الهراء؟" قاطعته "لا داعي للإنكار هيرمان، لم يكن أحد ليصل الى وكر الذئب لو لم تدلهم أنت عليه، ولا أعرف أيضا ماذا تخفي وراءك لكنني متأكدة أنك أنت الفاعل، وقد أدركت أخيرا أنك كنت تستعمل جهاز إرسال لاسلكي عندما كنا في دريسدن. أتذكر تلك الآلة التي كنت تحتفظ بها في غرفتك هير هانز ماكين؟ هل لازلت تذكر ذلك أم نسيته؟ ليس هذا فقط لقد

كنت أشك طيلة الوقت في غياباتك المتكررة عن الفندق وحديثك بإعجاب وحماس عن روسيا والعمال والفودكا وقيم الوطنية التي كنت تصفها بالحق المتطرف". كانت نبراتها الحاسمة والواثقة كفيلة بجعله يطأطئ رأسه ويُطرق صامتا ووجلا أمامها، ويبدو أنها بالفعل اخترقت دفاعاته وجعلته يترنح لكنه لم يسقط بعد. جفَّفت دموعها واستعادت قوتها ثم سألته: "لماذا فعلت ذلك؟ هل كنت تخدعني كل هذا الوقت؟ أريدك فقط أن تخبرني كيف طاوعك قلبك وغدرت بي؟ ولا تقلق فلا أحد يعلم بسرك لقد كتمته في صدري وأخفيت هويتك عنهم، حميتك رغم أنك ذبحتني"، لم يجد بُدًّا أمام صراحتها سوى مواجهتها باعتراف صريح ومباشر أيضا، أخبرها أن زوجها لم يكن هو المقصود ولكن السفاح هو من كان يجب أن يموت. قاطعته صارخة بكل قوتها "ولكنك قتلت زوجي"، ثم ما لبثت أن خففت من حدتها واسترسلت "وقتلت معه أشخاصا آخرين أبرياء كل ذنبهم أنهم كانوا يخدمون وطنهم بإخلاص ويدافعون عن ألمانيا. ألمانيا يا هيرمان وطنك ووطننا جميعا". أشعلت كلماتها جذوة الغضب في صدره وعلت نبرات صوته فوق ثورتها قائلا " لم يكونوا يدافعون عن ألمانيا ولكن كانوا يدافعون عن هتلر، ذلك المعتوه الذي قتل خمسين مليونا من البشر بسبب أوهامه وعجرفته كان لابد أن يموت. لابد أن يتوقف هذا الجنون الذي يقودنا إليه، إنه يستمتع بغطرسته في مخابئه الآمنة ولا يحرم نفسه من أية متعة، بينما لا يجد ملايين البشر حتى جذور النباتات ليأكلوها، لقد حوَّل عرق الكادحين في مصانع الرايخ إلى بارود يسكبه من مدافعه وطائراته في صدورهم وصدور إخوانهم العمال والمزارعين" كانت كلماته توحي بأشياء كثيرة اختصرتها أورسولا في سؤال واحد "أنت شيوعي إذن؟ وكنت تخدعني باسم الحب كم كنت مغفلة" اقترب منها وعيناه تلمعان، بدا غريبا عنها لدرجة أن ملامحه تغيَّرت، حتى نبرة صوته تغيرت كأنه شخص آخر لم تعرفه قط وقال متحديا "لا لم أكن أخدعك لأنني فعلا أحببتك وكنت أشعر بسعادة غامرة ونحن معا ولا زلت أحبك، لكنني مؤمن بقضيتي أكثر من إيماني بالحب" كانت تنظر

إليه في صمت وخطي الدموع يحفران أخاديد في وجهها بينما استرسل هيرمان قائلا " ربما لم أكن بالنسبة لك أكثر من عبد اقتنصته ليرضي غرورك ويُشبع غرائزك وتنتقمين فيه من كل الرجال وأولهم زوجك. كنت تمارسين معي ساديتك وإذا كانت هناك خيانة في ما حصل فخيانتي مبرَّرة لأنها كانت من أجل قضية تهم حياة ملايين البشر، أما خيانتك فهي لا تعبر في جوهرها سوى عن رغبتك في النيّل من رجل سرق شبابك وتزوجك رغما عنك، وشتان بين هذا وذاك". كان كلامه مؤلما وجارحا لكنها اكتسبت مناعة جعلتها تتحمله. أحسَّت أن كل شيء بات واضحا أمامها ومنتهيا أيضا لذلك طلبت منه أن ينظر إلى وجهها، التفت ناحيتها فأخرجت من تحت تنورتها مسدسا كانت تربطه إلى فخذها وصوَّبت فوهته نحو رأسه. لم يكن يتوقع أن تكون ردة فعلها بهذه الحِدَّة وهذا العنف، حاول الاقتراب منها لكنها حذرته قائلة: "خطوة واحدة أخرى وستخترق الرصاصة جبهتك"، تذكر حينئذ أنها تحسن جيدا استعمال المسدس وأنها تتمتع بالقوة النفسية والجرأة الكافيتين لترديه قتيلا وسرعان ما تأكد من ذلك حينما أمرته أن يجثو أمامها على ركبتيه ويضع يديه خلف ظهره. امتثل من فوره وتوسّلها أن تتريث قليلا ولا تصدر حكمها عليه بالموت، استعطفها وحاول أن يستثير عواطفها مجددا. ذكَّرها بالأيام التي قضياها معا وبكلمات الحب التي كانت تغزلها له، لكن كلامه كانت له نتيجة عكسية وزاد من شدة غضبها فشتمته بكلام نابٍ. لم ييأس من المحاولة بل أقسم لها أنه لا يزال يحتفظ بحبها بين ضلوعه وأنه سيبرهن لها ذلك، سألته كيف سيفعل؟ فأجابها أن بإمكانه أن يدبر أمر خروجهما معا من ألمانيا كما أرادت، ليس هذا فحسب بل أخبرها أن مكانته لدى الاستخبارات السوفيتية تسمح له بأن يؤمن عيشها في موسكو نفسِها أو كييف، فالحرب أوشكت على الانتهاء ولا يجب أن يخسرا كل شيء. كانت نبرة صوته ونظراته توحي بأنه واثق مما يقول، فسألته كيف سيدبر خروجها من ألمانيا خصوصا في هذه الظروف ولا يكاد يوجد طريق آمن كما أخبرها هو بنفسه قبل لحظات ولا منفذ خال من

الجنود والجيش؟ فأكد لها أن هناك من سيساعدهما فهو ليس الوحيد من يعمل لحساب السوفييت ولكن هناك المئات من العملاء الروس الذين ينتشرون في كل مكان.
أنزلت أورسولا مسدسها عن جبهته وهي غير مستوعبة لما كانت تسمعه، جواسيس وعملاء في كل مكان، حتى الجيش والشرطة السرية لم يسلما من الخيانة المغموسة بالفودكا. أضحت الآن متيقنة من صدق ما سمعته من هتلر ذات يوم عندما قال أن "بين كل خمسة ألمان يوجد أربع خونة". ألقت بنفسها في يأس على الكنبة فقد تمكن منها التعب والإحباط، وبات الشك يحيط بها من كل جانب، اقترب منها وحاول أن يحتضنها لكنها دفعته وصرخت في وجهه: "ابتعد عني، لا تلمسني فقد دنستني خيانتك بما يكفي" كان موقفها مفاجئا له ولم يعد مطمئنا لما يحدث حوله، فغافلها وخطف المسدس من يدها وقال لها "هل تتلاعبين بي؟ أنا أعرفك جيدا، ويبدو أنك لست جادة معي أبدا؟"، رمقته بنظرة غضب وازدراء ثم أشاحت بوجهها عنه إلى الأرض وقالت " إذا كنت تعتقد بأنني سأثق بك مجددا فأنت واهم. لا حاجة لي بعميل ميكيافلي خائن؟ "، كانت كلماتها تخرج من فهمها كطلقات الرصاص رغم أنها كانت متعبة وأنفاسها متقطعة مثل متسابق فرغ لتوه من سباق ماراتون. أُسقِط في يده وشعر أن الأمور تفلت منه فوجّه فوهة المسدس إلى رأسها ووضعه على ناصيتها. كانت ردّة فعله برغم كل شيء صادمة، تساءلت بداخلها "هل سيقتل حبيبته؟ هل يمكن للقلب أن يتحول كل تلك المسافة؟ كانت الخيبة تمزق قلبها فهي فشلت في الحب تماما مثلما فشلت أن تكون مواطنة صالحة أيضا. كانت قواها خائرة وطاقتها مستنزفة كأن جسدها فرغ من روحها وكل ما تبقى في جوفها هي مجرد عبارات حقد وكراهية لا بد أن تقذفها في وجه من كان حبيبها في مشهد درامي أسود أخرجه القدر باحترافية. فهيرمان هو الرجل الوحيد الذي أحبّته بصدق، وجعلها تكتشف أن للحب متسع في حياتها، وهو نفسه من يجعلها الآن تتذوق الطعم الحقيقي للحقد والكراهية لذلك رفعت رأسها وقالت له بثقة: "لن

ترهبني أبدا فأنا لا أخاف الموت وليس هناك ما يستحق أن أعيش من أجله بعد اليوم. لكن ما سيجعلني أتألم في قبري للأبد هو أن موتي سيكون بيد الرجل الذي أحببته لكنّه طعنني بغدره. لقد قتلتني يا هيرمان منذ اللّحظة التي استعملتني فيها كطعم للوصول إلى أهدافك، وقتلتني حين جعلتني سلاحا قتلت به زوجي ومعه عشرات الأبرياء" أجابها وهو يغلي من الخوف والغضب: "ألم تفهمي بعد؟ إن هتلر ليس هو ألمانيا ولست أنا العدو إن عدو ألمانيا الحقيقي هو من أراق دماء أبنائها على الجبهات"، كانت كلماته رغم كل شيء تنبع بالصدق لكن هذا الصدق كان يستفزها، فقالت: " والآن ماذا؟ هل ستنتظر كثيرا؟ هيا اضغط على الزناد لننتهي من هذا العبث" حشرته في الزاوية ولم يعرف كيف يتصرف، كان يريد أن يتركها ويغادر، فهو لا يقوى على قتل حبيبته لكن حياتها قد تعني موته. فكّر أنها لن تتركه يمضي بسلام، حاول استدراجها بالقول "لست مغفلا بالقدر لأتركك تشين بي للنازيين كي يقتلونني"، عدّلت من جلستها ووضعت رجلها اليمنى فوق رجلها اليسرى ثم ردت عليه بكبرياء: " أعرف أن عميلا مثلك ليست له عاطفة أصلا ولا يملك قلبا يحس ويشعر، لا تظن أنني سأتوسلك لتبقي على حياتي لن أفعل أبدا، لن أجثو على ركبتاي كما كنت تفعل أنت أمامي قبل قليل، أنت نذل وجبان وأنا لا أستعطف أمثالك".

كانت هذه الكلمات جارحة لكبريائه وطعنته في قلبه حتى جرفه شعور عارم بالغضب جعل الحب يتراجع في نفسه إلى الخطوط الخلفية. لقد سلخت كرامته ومزقت جلده، وحده منظر الدماء المتفجرة من رأسها كان كفيلا أن يشفي غليله، تراجع إلى الخلف ونظر إليها نظرة أخيرة كأنه يُريد أن يطبع قسمات وجهها في ذاكرته، ثم قال "سأثبت لك الآن أنني لست جبانا كما تعتقدين، لكن قبل ذلك عليك أن تعلمي أنّني أحببتك بصدق" ثم وضع فوهة المسدس على صدغه، لم تُصدّق عينيها وصرخت: "ماذا تريد أن تفعل؟" فأجابها: "إذا كان على أحدنا أن يموت، فليكن أنا" ثم ضغط بقوة على الزناد لكن هيهات فالمسدس كان فارغا من الرصاص ولم يحدث ما أراده، لم يفهم ما الذي كان

يحصل؟ لقد أرادت أن تتلاعب به ولم يكُن في نيّتها أن تقتله لذلك أفرغت المسدس من الرصاص، لم تكن لتقتل رجلا قاسمته الحب والنبيذ والفراش. أمام هول الصدمة انتفضت أورسولا من مكانها وارتمت عليه، ضربته بيديها على صدره وشتمته ثم احتضنته بكل قوتها، كانت تعرف أن هذه المرة ستكون الأخيرة لذلك كان الألم يعتصر قلبها عصرا. لم يخطر ببالها أنه سيختار الموت من أجل أن تعيش هي، غرقت في بحر من الدموع الساخنة والتصقت به لتملأ أنفاسها برائحة جسده، أخبرته أنها أحبّته هي أيضا لكنه اختار طريقا غير طريقها، وحتى اذا لم يقتلها بالرصاص فإنها الآن ميّتة ودون أن يُريق دمها. لم يستوعب هيرمان ما كان يحصل معه وظل صامتا جامدا لكن صوتا جهوريا قويا جاء ليضع نهاية لمشاعر الحب والغضب والحيرة قائلا "مكانك هيرمان أنت موقوف"، التفت وراءه فإذا به يرى العميد تيللر يخرج من الردهة شاهرا مسدسه في وجهه. أدرك الآن كل ما كان خافيا عليه، لم تكن أورسولا لتقتله حبّه في قلبه لم يغلب حبّها لألمانيا لذلك اختارت أن تُسلّمه، وما هي إلا طرفة عين حتى انقض عليه خمسة رجال آخرين من عناصر الشرطة السرية خرجوا له من كل جانب بعدما كانوا مختبئين في غرف متفرقة بالشقة، طروحه أرضا ووضعوا الأصفاد في يديه.

نظر العميد تيللر إلى أورسولا ولم يعرف هل يهنئها أم يواسيها، لكنه توجّه نحوها وحاول تهدئتها ثم قال: "أعرف أن ما وقع الليلة كان صعبا جدا، لكنك أبليت حسنا فراون كولن، كان يجب أن يحدث هذا وأن تسير الأمور على هذا النحو. عموما لم يبق الآن شيء يمكن قوله لكنني أعدك أنني سأقوم بتسوية الموضوع مع الأجهزة حتى ننأى باسمك بعيدا عن أية مساءلة".

لم تُعقّب أورسولا على كلام العميد فقد كانت منهارة تماما وهي تراهم يقتادون هيرمان في أصفاده أمام عينيها، كانت تعرف أنها سلّمتهم حبيبها ليقتلوه وعمّق ذلك من جراحها، لكن برودا صقيعيا اجتاحها فجأة كأنها أخذت حماما بماء الثلج وتجمّدت

مشاعر الغضب بداخلها حين أدركت أن حبها لهيرمان لم يكن مجرد نزوة عابرة. تمنّت لو أن مسدسها كان محشوا بالرصاص لكانت أردته قتيلا بيدها ثم لحقت به، حينها سيكون كلاهما قد تطهّر من دنس الخيانة وسيستحقان أن يموتا ويُدفنا معا، لكن ذلك لم يحدث. لقد كانت الهزائم تُحيط بها من كل جانب وكان لا بدّ أن تنتصر في معركتها حتى لو كانت ضد قلبها لأن انتصارها سيجعلها تعيش ما تبقى لها في هذه الحياة بضمير مرتاح، لكن ما فعله هيرمان جعل انتصارها ذاك أكثر إيلاما من الهزيمة ومن الخيانة أيضا، لقد كان يُحبها بالفعل لكنه جعل حبه في خدمة آيديولوجيته، وهي أيضا كانت تحبه لكن وطنيتها غلبت الحب في قلبها، وبين الآيديولوجيا والوطنية كان الحب هو الخاسر الأكبر وتلك أعظم الخسارات.

فصل الحب الأخير

انتهت الحرب بهزيمة قاسية للألمان، انتحر هتلر وانتحرت معه زوجته إيفا براون وأُحرقت جُثّتيهما وأحرقت معه أفكاره النازية المتعصبة التي اكتوى بنارها ملايين البشر حول العالم وتم تقسيم الوطن الذي كان أمة عظيمة بين القوى الجديدة في الشرق والغرب وهو الأمر الذي كان له الأثر الكبير على نفوس الألمان ولعقود طويلة.

تمكنت أورسولا من الهروب من برلين قبيل ساعات قليلة من سقوطها في يد الجيش الأحمر والتحقت ببيت عائلتها في هامبورغ، جعلها ذلك مواطنة غربية بعدما تم تقسيم ألمانيا إلى جزأين أوّلهما في الشرق موال للسوفييت ويخضع للنظام الشيوعي والثاني في الغرب ويدين بالولاء لليبرالية الغربية التي تزعمتها الولايات المتحدة الأمريكية هذه القوة الجديدة التي فرضت ثقافتها على العالم. لا تنكر أورسولا أنّ مصيرها رغم الهزيمة كان أحسن بكثير من مصير مثيلاتها على الجانب الشرقي من جدار برلين، لأن من استنشق هواء الحرية لم يكن ليتحمل ذل العبودية تحت أقدام الجذاذة العسكرية السوفيتية، لكن رغم كل شيء فقد كانت تجلس وراء زجاج نافذتها طويلا وتعود بذاكرتها إلى الماضي القريب، بعد ثلاث سنوات لا زالت وفية لحزنها ليس لضياع وطنها وتمزقه بين إيديولوجيتين، ولكن لأنها أضاعت طريقها إلى الحب، فعشق هيرمان بات اليوم أعمق في قلبها من كل شيء. أدركت أنها ربما أخطأت الهدف وتساءلت طويلا هل كان يمكن لها أن تختار نهاية أخرى لهذا العشق مغايرة تماما لما حدث؟ لقد أخبرها ذات بوح في ليلة من ليال ديسمبر أنه لا يؤمن بوطنية يُحدّدها مزاج القائد ويضع حدودا لها مغايرة لما هي عليه في الواقع فقط لأن خطوط الطول والعرض لا تعجبه وهاهي الأيام تُظهر صدق أقواله. هو أيضا كان مخطِئا، فقد كان مؤمنا بمبادئ الشيوعية مُعتقدا أنها السبيل الوحيد للمساواة والحرية التي كان ينشدها ويبحث عنها حتى لو كانت مغلّفة بالكآبة، وهاهي التجربة تُظهر بأنه بذل

حياته في سبيل كذبة مروّعة أخرى لا تقل عنصرية ودموية عن كذبة النازية، فالشيوعية التي آمن بها وأخلص لها باتت اليوم وبالتجربة الحية مناقضة تماما لشعاراتها لأن الشيوعيين لا يطبّقون المساواة إلاّ فيما يتعلق بالتوزيع العادل للقهر والظلم والحرمان على شعوب الدول التي اغتصبوها أمّا الحرية فلا مكان لها في قاموسهم ولا وجود.

كانت أورسولا تشرب قهوتها وتقّلب بين يديها مجسما خشبيا لحمامتين ترقدان في العش، كانت تلك هدية هيرمان لها بمناسبة عيد الميلاد الذي قضياه معا في دريسدن. رغم كل ما حصل بقيت تلك الليلة وتلك الهدية من أعظم وأغلى ذكرياتها، لكنها لم تكن آخر هداياه، لقد كانت تضع أمامها على الطّاولة هدية أخرى أثمن وأغلى ما لديها، وربما وجدت فيها ما يواسي قلبها ويضمد جراحها العميقة التي تدمي روحها. إنها كراسة الخواطر التي استعارتها منه قبل عودتها من دريسدن، وهاهي اليوم قد أضحت ملكا لها. لقد اعتبرت نفسها وريثه الوحيدة بشرعية الحب الذي تحمله له في قلبها والآن بعدما هدأت عواصف الحرب والإيديولوجيا يُمكنها أن تقرأ ما كان يدونه عليها دون أن ترتعب فرائصها أو تشعر بوخز الأفكار التي كانت تتعارض مع وطنيتها قبل سنوات.

خواطر هيرمان

التاريخ : صيف 1940
المكان برلين
العنوان : الحب وطني الأخير

احتاجك وطنا جديدا أنتمي إليه ولا يستوطنه غيري، استظل بظل حضنك وأنعم بشمس عينيك. أريد أن آخذك إلى ريف شمالي بعيد لا يدركه سوانا أنا وأنت فقط. فأنا أعشق برد الشمال ربما لأنه يشبهني، أعشق أريافه المتشحة بالصمت وأحلم بحقول الثلج وأشجار الصنوبر والكستناء، لذلك سأسبقك إلى هناك إلى بيتنا الحجري ذي السقف الخشبي المائل المتدثر بالبياض، وسأرسل إليك قطعان الأيائل الرابضة بجانب البحيرة لتكون في استقبالك وأشعل لك عيدان السنديان اليابسة في المدفأة، وأغيّر بيدي مياه المزهرية الآسنة وأنتظر ... انتظر على نار الشوق قدومك كي أملأ أوصالي برائحة الحرية ثم أخلطها بعبير أنفاسك وأغفو معك في غيابات قبلة سرمدية. وننصب سويا مشانق العشق الأزلية للجغرافيا والدين والأيديولوجيا لنصلب عليها سنوات العذاب الماضية، ونكتب بدموع الفرح بداية أجمل رواية رومنسية.

التاريخ : مسحته دمعة سقطت على الورق
المكان : براغ - تشيكوسلوفاكيا
العنوان : عازف الأوكورديون

لا تحزن يا هيلمر، لقد عرفت اليوم فقط أنهم قطعوا أصابعك الواحد تلو الآخر قبل أن يقتلوك، أخبرتني كلارا بائعة الجرائد أنهم فعلوا بك ذلك لأنك عزفت لحنا حزينا ليلة سقوط براغ. ربما كانت الأقدار رحيمة بك، فأبت أن تجعلك ترى ما نراه الآن. لا تقلق يا هيلمر لم يعد هناك من يعزف لنا ألحانا

سعيدة. ليس لأنهم قتلوا العازفين، ولكن لأننا لم نعد نمتلك آذان نسمع بها، فأرواحنا مهترئة وقلوبنا مكسورة، أعلم أنهم كسروا قلبك أيضا عندما أحرقوا الأوكورديون أمام عينيك. لا تبتئس فقد أحرقوا البشر وهم أحياء وجعلوا للرصاص لحنا تعزفه بنادقهم وخنقوا النايات في حقولنا الخضراء. لقد اقتلعوا الحب من صدورنا وزرعوا محله بذور الخوف التي نمت وصارت أشجارا وارفة جوفاء وكريهة الرائحة فلا تحزن يا صديقي ولترقد روحك بسلام.

التاريخ : خريف 1943
المكان : برلين
العنوان: رسالة إلى أورسولا

تعالي إليَّ حبيبتي لنفتت جبال الشوق المتكلسة في عيوننا ونصهرها كحِمم ذائبة في براكين القبل الملتهبة. تعالي لنَظفِر جسدينا كجدائل غجرية منسدلة على سقف الرغبة الجامحة ونفترش لحاف الليل، تحرسنا النجوم ونتوسد الغيوم المحشوة بالحنين والدموع. أُقطِّر النبيذ على خديك المتوردين كمروج التوليب المكسوة بحمرة الخجل، وأرتشف رحيق شفتيك النازفة دهنا مهراقا على عجل. نقف على حافة الاشتياق نحتمي من برد الفراق بالعناق، ثم نُعمِّد جسدينا بماء الثلج الذائب من حرارة الحب حتى إذا استيقظت الروح ثمل القلب.

التاريخ :شتاء 1943
المكان : في الطريق إلى دريسدن
العنوان: الطريق إلى أورسولا

على ناصية الأشواق انتصبت الآمال تواقة لدفء اللقاء وعناق قلبينا المزروعين كشمعتين دامعتين على ضفاف نهر البوح العذب، والبوح في عرف الشعراء يا حبيبتي هو مرآة الروح وكلام القلب. ويحدث أن تعاكسنا رياح الشتاء فتقف أقدامنا متسمرة على أعتاب حب جديد ترفض أن تمضي بنا إليه

كأنها أضاعت خطواتها إلى السعادة التي باتت في قاموسنا مرادفة للغياب. تعبت يا حبيبتي من أزمنة الضيق التي أنهكت قلبي وتعبت من سفري المتواصل على طريق الوطنية الشائك ومن قراءة كتب الخوف المصفوفة بعناية على رفوف الشتات. أريد أن أكون ترنيمة حرة ترددها شفتيك، أو خاطرة عابرة يعزفها قلبك. أخاف أن يتحول الحزن من بسمتك فرحا فاقدا للذاكرة، انتظرتك سنين طويلة وها أنت اليوم تكسرين الصمت لأولد حبا بين يديك بلا قابلة، فلا تسأليني عن يوم اللقاء بعد التيه، لا تسأليني كيف كسرنا الحدود لنلتقي في هذه الدروب.

كانت أورسولا تقرأ خواطر هيرمان والفرح المتشبّع بالندم يغمر قلبها، أخيرا استطاعت أن تفك بعض طلاسم روحه التي كانت مستعصية عليها وبدأت وطأة الحب والحنين تشتد أكثر فأكثر على قلبها. أحسّت أنه قريب منها بقدر المسافة التي تبعده عنها، فاختارت أن تكتب له وعلى نفس الكراسة بعضا مما كان يجول في خاطرها. كان هناك متسع من المكان والوقت والأمل أيضا، أمل في لقاء قد يتحقق حيث لا حرب ولا جغرافيا ولا حدود ولا تعصب، وحيث لا ألم وموت ولا دموع أيضا.

خواطر أورسولا

التاريخ: ديسمبر 1946
العنوان: رسالة إلى هيرمان

لماذا يأخذني تفكيري إليك وأنت لم تكن لي ولا أنا كنت لك. لماذا يدق قلبي على أوتار الحنين؟ وتدندن روحي لحنها الجميل كلما لاح لي طيفك؟ أنت لم تعد هنا، لم تعد تمشي معنا على هذه الأرض، لكنني أراك كأنني عدت معك لسنوات الصبا ووهم المراهقة وحب الخيال!! لماذا هذا الطوفان من الشوق يسافر بي في طريق الشرق؟ هل هي سخرية القدر؟ أم أن ديسمبر له علينا مفعول السحر؟ مرت ثلاثة أعوام على عتبات الزمن، لقد سرقني العمر وهرستني الانشغالات في رحى الحياة، لم يعد للهموم وقعها على النفس وهذا من مزايا الهزيمة. عندما تكون الانكسارات عظيمة، لا نتألم للخيبات الصغيرة، كل شيء مضى الآن، وبقيت وحيدة تتقاذفني الذكريات كمنديل ورقي تافه، تدوسه عجلات المركبات في الطرقات، أو تعبث به الرياح وتقذف به بعيدا بين حبال الغسيل في الأسطح، أو تلقي به بين أغصان عوسج بري ينبت بعشوائية على جنبات الرصيف. لكنني بين هذا وذاك لم أفقد ذلك اللحن الجميل في قلبي، وبقايا عطرك ورائحة أنفاسك تخترق صدري. إنني أحتفظ بها كلها مجتمعة، لأنني ببساطة وبرغم كل شيء لا زلت أحتفظ بحبك الكبير بين جدران قلبي الأربعة. أعرف! إنها حكاية لم تكتمل لقصة حب صادق وجميل، تماما مثلما أعرف أنها حكاية حب مستحيل.

التاريخ : يناير / كانون الثاني 1946
العنوان: انتظار

وتعود ليالي كانون الباردة وتعود معها ساعات الوحشة. سيل المشاعر الهادرة بداخلي وسطوة الأحاسيس المتمردة على جدار الصمت، قسوة الصبر الذي يقصم تماثيل الصخر المنحوتة على

ضفاف القلب. وتعصف بي غمرة الحنين كسيل يسقط إلى أعلى يتحدى جبال الخوف ويطلق أنين البوح. أتوق إليك، نعم أحتاجك، أبحث عنك، أطارد طيفك بين الأقنعة والصور وأتسمع صوتك في أجراس الكنائس المتمازج مع أهازيج الليل. أبعثر تفاصيل حياتي التي ملكها حبك وأتمرد على واقعي ثم أعود لدروب اليأس وحيدة أنا وكلماتك. أتوهم لمحة أمل لأستشعر طيفك يغشى روحي ويسري في ذاتي مسرى أنفاسي. إحساس رقيق يمدني بالصبر فأريح نفسي من نفسي وأطبق أهدابي حتى يتراءى لي طيفك أو استشعر يدك تلامس يدي وبسمتك مرسومة على شفتيك فتدب الحياة في ركام روحي تزرع رعشة لذيذة تذيب جبال الجليد المتكومة فوق قلبي ويسري فيه دفء أكمل به ما تبقى من ساعات الرجاء في انتظار يوم آخر كأنها طقوس لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد بانتظار يوم اللقاء الأخير.

التاريخ : مارس/ آذار 1946
العنوان : تباشير الربيع

ستار من الساتان الناعم ينسدل على أطراف يومي تاركا فسحة صغيرة للأمل وبعض خيوط الضوء تتسلل خافتة في صمت إلى الروح كما ينسل بعض الضوء من ذلك العمود الوحيد المنتصب في صبر عجيب يقاتل لوحده هلام العتمة. فراشات الربيع الخائفة لا تبارح شرنقاتها وأزهار اللوز تصلي لأعياد آذار وتستعد لتوديع الشتاء. وتر يرتعش يخدش وجه الريح فتئن لحنا حزينا كبعضي ونَفَس يخرج كدخان يخترق قبة الأفق المسيج بالأحلام والليل يرتد متخفيا كعادته يكبح جماح الموج واللقالق العائدة متعبة من مهجرها لتستقر فوق قمم الكنائس القديمة وتشهد على وجودي. رائحة الخبز تغري بالحياة، قنينة نبيذ وقطعة جبن وحبات البرتقال تزين مائدتي ولا شيء ينقصني غيرك أنت لتتوجني ملكة على عرش السماء ونختزل سنين المنافي في وحدة جسدينا ونتخذ سلام العشق وطنا أخيرا ونهائيا لنا كما أردته أنت بلا ألوان وبلا آلام.

التاريخ أبريل/ نيسان 1946
العنوان : آخر الكلام

تتنفس أيامي شوقها إليك كنسيم الفجر ويرتوي قلبي من ذكراك واشتاقك بحجم السماء. رقيقة أنت يا تباشير الربيع عندما تحملين معك تراتيل السلام، دافئة كأشعة الشمس تخترق وسائد الغيم لتداعب أوراق الشجر وناعمة كريشة حمام تحتضن الأفق وتهوي برفق على خد طفل يتعلم المشي وينتشي بأولى خطواته في الحياة. إذا كانت الأرض ستعانق ربيعها فمن أين لي بك يا ربيع القلب؟ كيف تركتني وحدي ومضيت؟ ليتني كنت مضيت معك. الآن تتناثر حروف اسمك بداخلي كبذرة حب زرعتها في قلب خصب لكن من دون رواء. فمن يرويني بعدك عشقا كي تُزهر الزنابق في جسمي وتتفتح أيامي وأُخلق من جديد.

كتبت أورسولا آخر كلماتها وهي مستلقية هذه المرة على فراشها. لم تغرها أجواء الربيع بالجلوس في الشرفة كعادتها ربما لأنها بفضل ذكرياتها مع هيرمان أضحت تعشق فصل الشتاء. كتبت آخر كلماتها وأضافت اسمها على الغلاف إلى جانب اسمه "خواطر هيرمان وأورسلا" فهي الآن تحمل حبّهما معا مثلما حملت آمالهما وهمومهما، وقبل أن تحفظها في مكانها الأخير خطرت لها فكرة إعطاءها عنوانا جديدا ربما يلخّص في سطر واحد كل ما حدث، فكتبت على مقدمة الغلاف بالخط العريض : **اشتباكات على خطوط الحب**

انتهت

محتويات الرواية		
**	تنويه	4
**	كلمة المؤلف	5
1	طريق الجنة الحارق	9
2	متلازمة الحب والموت	15
3	ديسمبر شهر الحرب والحب والفودكا	19
4	الجيوش تخسر معاركها من غرف النوم أولا	22
5	رحلة قصيرة إلى الجحيم	25
6	ليلة شتاءٍ ساخنة	34
7	للقمر أيضا جانب مظلم	41
8	العسل المر	48
9	رقصة التانغو الأخيرة	53
10	شمس الحرب الغاربة	58
11	صراع الثعالب	66
12	أضواء العتمة المبهرة	73
13	طريق العودة الشاق	81
14	أعظم الخسارات	84
15	فصل الحب الأخير	95
16	خواطر هيرمان	97
17	خواطر أورسولا	100

جميع حقوق النشر الورقي
و الإلكتروني محفوظة للناشر